

دروس في تهذيب النفس

عباس نور الدين


دروس في تهذيب النفس

دروس في تهذيب النفس

السيّد عباس نور الدّين

مؤسسة العروة الوثقى

الطبعة الثانية
١٩٩٤م - ١٤١٤هـ





بعد نفاد الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذي أثار جدلاً واسعاً في أوساط المهتمين بهذا العلم الإلهي، أردنا أن نعيد طباعته مع مقدمة وجيزة نبين فيها أن هذا البحث إنما جاء كحاجة ضرورية بعد أن أثبتت المناهج الشائعة عدم قدرتها على الإجابة عن الأسئلة الحساسة التي يطرحها طلاب الحقيقة ورواد هذا المنهل.

والدعوة إلى كل باحث منصف أن يعاين هذه التجربة بدقة وعن قرب، ليرى حجم التأثير الذي يتركه كل منهج، وأن لا يحكم من خلال الشياع والاعتبار لأنّ أكثر ما نحتاجه اليوم هو الصياغة الجديدة لمعالم الإسلام وتعاليمه الأصيلة بالاستفادة مما كتبه الأقدمون أعلى الله كلمتهم.

ففي عملية تدريس الأخلاق وعرض المفاهيم السلوكية يمكن أن نقف على أسلوبين مختلفين، لكل واحد منهما إيجابياته المطلوبة.

الأسلوب الأول:

الوعظ والتذكير

ويقوم هذا الأسلوب على أساس التذكير، من خلال عرض مفاهيم الترهيب والترغيب.

ففي الترهيب: ذكر أحوال الموت وأهوال القيامة، وعذاب النار، ودركات

الجحيم. واطلاع الناس على أنهم هلكى إذا لم يخلصوا لله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة. وأنّ الإخلاص سرّ من أسرار الله العظيمة التي لا يصل إليها إلا القلة القليلة. وغير ذلك من المفاهيم والأفكار التي تدور حول النفس وجرائمها، والموبقات التي تصدر منها، فتتجسّد الصور البرزخية أو الآثار الواقعية في الدنيا.

وفي الترغيب: ذكر رحمة الله الواسعة التي تشمل كل شيء والوعد بالجزاء الجزيل والجنة والقصور ونتائج الحسنات التي لا يقوى على إحصائها الملائكة المقرّبون. وتشويق الناس إلى الشفاعة الكبرى للنبي (ص) وآله (ع) الذين يقفون على الصراط فيشفعون للمذنبين وأهل الكبائر وو...

وكلما كانت قدرة الواعظ على التأثير أكبر، وكانت محفوظاته في هذا المجال أوسع، قوي على النفوذ إلى النفوس السامعة والأرواح الحاضرة. حتى انه يستطيع أن يخرج البعض من حالة التوازن إلى درجة الصراخ والعويل وشق الجيوب ولطم الرؤوس.

وفي هذا، صلاح كبير وفوائد عظيمة، لأنه تعبير عن الإنابة لرب العالمين واعتراف بالتقصير والاجتراء.

وهذا أول خروج عن تمرّد النفس وادّعاء الأنا الكبرى التي تستغني فتطغى. نعوذ بالله من ذلك.

واعلم، أنّ النفس الإنسانية أوسع وجوداً إذا ما قسناها بسعة البدن في حظ الوجود. وهذه فكرة عرفانية حكميّة، ندركها بالبداهة ونخرج عنها ـ وللأسف ـ بالممارسة العملية. فترانا نعطي للجسد وشؤونه اهتماماً أكبر ويكون حالنا كما قال رب العزة: **﴿وقد خاب مَن دساها﴾**.

فقد جعلنا النفس الشريفة تحت تراب البدن والماديات، وأغفلنا حظاً عظيماً.

وإنما قصدنا من ذكر هذه النكتة الحكمية إلفات النظر إلى مسألة أخرى هي سر وأس كلي في روح الوعظ والتنبيه. لأن ما كان له حظ أوفر في الوجود كان احتياجه وجوعه أشد. ومن هنا نعلم سر قوله صلى الله عليه وآله:

«الفقر فخري وبه أفتخر على سائر الأنبياء».

وربما تخيَّل بعض الصوفية أنّ النبي الأكرم (ص) كان يشير إلى الفقر المادي فجعلوه شعاراً. ولكن لم يسمعوا قول الأمير (ع):

«لو كان الفقر رجلاً لقتلته».

ولم يعرفوا أن من أهداف النبوّات في مراحل الحكومة القضاء على الفقر والجهالة والحرمان. وأن التشريعات المالية إنما كانت لأجل إخراج المجتمع من متاهات العوز والحياة البائسة.

فهذا الفقر الأعظم الذي صار سبباً لافتخار النبي (ص) هو الفقر إلى الله والرجوع إليه مطلقاً، وهو معنى العبودية التامة:

«أشهد أنّ محمداً عبده ورسوله».

وإنما عبر عن حقيقته الكمالية العليا بالفقر المطلق لأنه عبد ـ كما ذكرنا ـ قد بلغ من حظ النفس المرتبة الكبرى التي عجز جبرائيل الأمين (ع) أن يدانيها.

فإذا علمنا ذلك أدركنا أنّ حاجتنا إلى غذاء الروح أشد كثيراً من حاجة الجسد الذي إذا جاع تألّم، وقد تبلغ آلامه درجة لا يقوى الإنسان معها على البقاء في الحياة.

ولكن المشكلة الكبرى هي أن الإحساس بالجوع الروحاني ليس من سنخ المشاعر الجسمانية التي تبرز نتيجة حركة الأعضاء وإفرازات الأجهزة.

فبنتيجة موت البصيرة والعمى عن الحياة المعنوية يكون الشعور مفقوداً أيضاً. فالموعظة في هذا المجال تعتبر أفضل غذاء للروح.

وهي حياة الروح. والحاجة إلى سماعها تعبير عن الفقر إلى الله والرجوع إليه. واعلم أيضاً أنّ الشبع عنها دليل على الاستغناء الذي يؤدي بصاحبه إلى الطغيان المفسد كما ذكرنا. لأنّ الروح بخلاف الجسد لا تشبع أبداً. فالجسد يجوع ـ كما يقال ـ بقدر الفراغ الحاصل فيه (ولذلك فإن جوع السمين أشد من النحيل) ولكن فيما إذا تمت تغذيته، وحصلت تعبئته، انسدّ جوعه. أما النفس الإنسانية فإن حظّها من الوجود يتّسع دوماً. ولذلك استحقّت بلوغ أعلى الدرجات لتجاور الملكوتيين. ولذلك فإنّ جوعها مستمرّ دوماً.

سلبيات حول الأسلوب الأول

قد ذكرنا فيما مر جملة من فوائد الموعظة، كأسلوب معنوي في تدريس المفاهيم السلوكية. ولكن لا يخفى، أنّ لاعتماد هذا الأسلوب مطلقاً سلبيات عديدة، وهي بحال لا تمسّ صلب الفكرة، ولا تتجرأ على المواعظ البليغة بتاتاً.

منها أن سماع المواعظ يوقظ الروح ولكنه لا يعطيها نهجاً وقد يكون السامع متأثراً غاية التأثر، ولكنه لا يعرف من أين يبدأ وما هي غايته.

ومنها أن المواعظ تأوّل بتأويلات مختلفة. وهذا ما حصل للصوفيين الذين كانوا يستشهدون دوماً بكلمات الرسول الخاتم (ص). فالعقول التي لم تنل حظاً من الاعتقاد الصحيح، أو لم تبلغ المرام من فهم الوجود تستطيع أن تفسر كل موعظة حسب ما تشاء. كما فعل بالنسبة لأحاديث «إماتة النفس». أو «حالات النفس» وغيرها.

وسوف يتبين لنا بعض سلبيات الاعتماد الدائم على هذا الأسلوب بعد أن نستعرض وجوه الأسلوب الثاني.

الأسلوب الثاني:

النظرية المتكاملة

ويقوم هذا المنهج على أساس بيان كليات المسائل السلوكية بالربط المباشر بالجوانب الاعتقادية ومعرفة الوجود.

فمعرفة النفس وبـارئها، وطبيعةالعلاقـة الصحيحة مع الخالق عز وجل، ومراتب النفس، والغاية التي خلقنا لأجلها، وفهم ظواهر الانحراف كدسائس البعض وو... ...

كل هذه تكون في صلب المتن الذي يعتمد عليه الأسلوب الثاني. ومن خلاله يصل المتعلم إلى فهم صحيح ورسوخ تـام وقناعة أكيدة بأن مـا يصلح له في الحياة هو السير والسلوك فقط وان التخلي عن الذنوب ليس لأجل النجاة من العذاب الشـديد، وإنما لأجل القرب مـن الحق سبحانه. وإذا أدرك أنّ الغـاية التي خلقنـا لأجلها هي التحقق بحقيقـة الكمال، لم يضع إلى جـانبها قصـداً آخراً.

ومثال على ذلك (نضربه لبيان قوة هذا الأسلوب بالنسبة للأسلوب الأول): لو جئنا بشخص كان يرى أن غايتـه في هذه الحياة هي الوصول إلى المنصب الاجتماعي المعين ـ حتى لو برّر ذلك بتبريـرات إسلامية ـ، وجلس في مجلس للوعظ. وكـان من جملة ما أشـار إليه الـواعظ الغيبة وآثارهـا حتى لقد أبكى الحاضرين وجعلهم ينتحبـون وكان من بينهم صـديقنا المذكور الـذي صمم على تـرك الغيبة وعـدم الـدخول فيهـا أبداً واستغفـر ربـه مرات وقـرر دفع الصدقات.

إن هذا الإنسـان عندما يخرج إلى الحياة المليئة بالابتلاءات، سوف يتعرض لصراع أكيد بين قوّة الموعظـة وأسـاس التوجّه الذي غرسـه في أعماقه. ونقصد بذلك أن ما يـراه كمالاً له ـ وهو المنصب الاجتماعي ـــ ويسعى نحوه بكل ما

أوتي من قوة، سوف يـواجه تزاحماً، ولنفرض ذلك التـزاحم من إنسان آخر. وهنا يرى صاحبنا أن شيئاً سوف يحول دون وصوله إلى ما يبتغيه. فلا يرى مـانعاً من أن يبـذل كل شيء من أجل عـدم حصول ذلك. حتى لـو كان هـذا استغابة لمن يزاحمه على منصبه لتحطيمه ومنعه من ذلك.

وإنما أوردنا هذا المثـال لنبين أنّ ضعف البناء الصحيح والمعرفـة الواعية لحقيقة السلوك وغايته، قد تدمّـر كل ما تبنيه الموعظة الحسنة. ولذلك جاءت الحكمة قبل الموعظة:

﴿وادعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾.

أمّا إذا أدرك الإنســان حقيقة المقصد، فإن كـل المقاصد الفـاسدة تسقط. وكذلك إذا علم بحقيقـة التوحيد، وأن الله بيده كل شيء، حتى قلـوب العباد، لم يعد هناك داع لديه للرياء.

والحمد لله رب العالمين.

بيروت في ١٩ شهر رمضان المبارك ١٤١٤ هـ

١ الأخلاق في الحياة

قال رسول الله (ص) :

«إن لله في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها ولا تعرضوا عنها» .

أقلعت سفينة الحياة تحمل على متنها الإنسان الذي يعيش في عالم الطبيعة غافلاً عما سواه ، وأخذت تمخر عباب البحر الهادىء ، مما أضفى على الأجواء نفحة من السكينة والاستقرار، لا يعكر صفوه شيء ، فرحاً بما حمل معه من أصناف الأغذية الشهية ، يسعده رفقاؤه الذين ركبوا معه يشاركونه سروره وتنعمه . وبينما هو ينظر إلى السفينة تتقدم به عبر السنين يتطلع إلى الآفاق علّه يصل إلى مبتغاه ، فجأة هبت ريح عاصف فتدافعت الأمواج إلى الأعالي تتقاذف سفينة الحياة محاولة تحطيمها و إغراقها . وفي خضم هذه الغوغائية التي جعلت حياته لعبة بيد الأمواج العاتية وكريشة في مهب الريح ، تملكته حيرة شديدة وأحس بضياع كل شيء وتقطعت به الأسباب جميعاً ، وشعر أن كل ما بناه لغده أضحى رهينة التلف والخسران وأحاطت به غصَّات الدهر والزمان . وهناك انبعث النور الداخلي ، ليضيء في ومضات سريعة فضاء روحه ، و إذا بنسيم لطيف يهب من الأعماق ليصدع بنغمات قدسية : **«واصطنعتك لنفسي»** .

فأخذ يتلفت شمالاً ويميناً ، فيعاوده الخطاب الهادىء :

«فهل تفرّ مني»

ومن الأعماق علا صراخ موجود سجين قد تراكمت عليه طبقات العلائق المادية، حتى صارت كظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، وارتفعت أصوات الأنّات، تعبر عن الآلام والأسقام في لجة الأماني والأهواء.

هذه هي قصة إنساننا منذ فجر التاريخ، تحكي عن صراع مرير وتختزل في طياتها كل أنواع الصراعات. هي قصة صراع الروح مع عالم الطبيعة في مستنقع الشهوات واللذّات ولجج الأماني والموهومات، لا يخرج منها ناجياً إلا من تعلق قلبه بالمبدأ الأعلى وسافرت نفسه إلى حقيقة المنتهى: ﴿**وإن إلى ربك الرجعى**﴾، بقدم المجاهدة والإخلاص، وبراق العجز والفقر:

﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه**﴾.

مهما حاول الإنسان المسكين أن يتهرب من مبدأ الحق وعين الحقيقة فسوف يوقظه فوت أقرانه ويعيد إلى ذاكرته قصة المصير المجهول. فهناك تضعف الأهواء قليلاً، وتتكسر أمواج الأماني والشهوات وبمشهده لا يبقى طعم للذات الدنيا الملونة. فترتفع إلى صفحات الأفق عوالم المعنى والروح ويدرك من لوائح الأنفس لائحة يسيرة تحدثه عن قصة الفراق القديم، حيث دار الغيب ومعراج القرب.

١:١ علم الأخلاق

إن علم الأخلاق الذي هو فرع الحكمة العملية ينظر إلى البعد الآخر في وجود الإنسان، ويلفته إلى قضية المصير في أبهى صورة قرآنية بقوله عزّ من قائل:

﴿**ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها**﴾ «الشمس ٧».

والنفس هي الهوية الحقيقية للإنسان الآدمي، ومحتواها الحقيقي هو الذي يحدد وجهة الإنسان نحو السعادة والكمال ويبيّن مصيره المستقبلي في الشقاء والخيبة أم في الفلاح والنعمة. فهذه النفس في نظر أهل السير والسلوك، يمكن أن تتكامل من خلال برنامج التزكية والرياضة فترتفع إلى أعلى عليين وتصبح

مظهر «**أحسن تقويم**»، ويمكن أن تتســافل فتنحط إلى «**أسفل سافلين**» بعد الاهمال والتضييع من خـلال دسها تحت تـراب العالم المادي الذي نعيـش فيه، سواء في رابطة الحرام والغفلة أم في الإنشغال والعلقة.

وما دام الإنســان المادي يقصر النظر على عـالم الطبيعة والتعلقـات المادية أو يغلب النظر إليها، فإن نفسه تكون مصداق قوله تعالى:

﴿**قد خاب من دساها**﴾.

فالنفس الإنسانية قابلة للتغيير، مهما علتهـا طبقات الذنوب واسدلت عليها حجب التربيـة الفاسدة، وبـدون هذا النظـر فإن علـم الأخـلاق وسماع الموعظة والاختلاف إلى مجالس العلماء لا يعد له أية أهمية ويصبح هباءً منثوراً.

فقد تبين أن موضوع علم الأخلاق هو نفس الإنسان التي تتقبل التغيير وترفض الثبات والجمود.

إنّ أول خطوة ينبغـي أن يخطوها الســالك بعـد ادراكه لحقيقة وجـوده المرتبط بالوجـود المجرد عن المادة، هي فهـم قابلية التغيير، وادراك حقيقـة دعوة الأنبياء التي ختمت بقول النبي الأعظم (ص):

«**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

واتباعها انطلاقاً من تعاليـم الأولياء العظام والأئمة الأطهار «ص» التي تمكنه من اعتلاق عـوالم الغيب والوصول إلى مجاورة الملكوتيين واللحـاق بركب الكمّل من الصالحين الذين وصلوا إلى سعادة «**ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**».

وهذه الغـاية العظيمة، التي يحددها علم السير والسلـوك إلى الله، لا بد من الإحاطـة بها وفهمها فهماً تـاماً، لأن لهذا الأمر مـدخلية عظيمـة في تحقق السفر وخروج النفس من سجن الطبيعة أو سجن النفس والأنـانية. ولذلك لا بد من

الإشارة إلى النقاط التالية:

أولاً: إن موضوع الغاية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالرؤية الكونية الشاملة (والعقيدة الصحيحة) للوجود. وبدون فهم أصل العقيدة الذي هو التوحيد يبقى الأمر الأول متعذراً.

ثانياً: إن غاية الله من خلقنا هي غير الغاية التي خلقنا لأجل الوصول إليها. فالله عزّ وجلّ غني مطلق لا يعقل أن يكون فعله لفائدة أو مصلحة تعود إليه. بينما نحن خلقنا على ضوء حكمة الله في الفعل والخلق للوصول إلى كمالنا الذاتي وسعادتنا الحقيقية.

ثالثاً: إن التهاون في تحديد الغاية والغفلة عن الإحاطة بأبعادها من شأنه أن يضر السالك ويوقعه في مآزق هي أصعب وأشد عليه مما هرب منه عند البدء في السير والسلوك.

فغاية دعوة الانبياء (ع) إيصال الانسان إلى كماله الحقيقي

ولأجل أن يتمكن الإنسان من بلوغ غاية الحق والوصول إلى السعادة الحقيقية يطرح علم الأخلاق برنامجاً سلوكياً، عنوانه الأول الرياضة القلبية من خلال سلسلة الأعمال والعبادات الشريفة، لأن هذه النفس قد تربت في أحضان الطبيعة ورضعت من حليبها فاستأنست بمشتهياتها حتى صار النهوض صعباً والسير مستحيلاً وتحقق اليقظة معجزة.

هذا البرنامج هو الذي يعبر عنه أهل الله بالسير والسلوك لبلوغ المقصد.

خلاصة الدرس الأول :

- الغفلة تسجن الإنسان في عالم المادة وعلائقها وتجعله يعيش صراع الروح مع عالم الشهوات والأماني والموهومات.
- الإحساس بالحيرة والضياع طريق لانبعاث النور الداخلي الذي يهدي إلى الهدف.
- النجاة من العلائق المادية تتحقق بالسفر إلى الله بقدم المجاهدة والإخلاص وبراق العجز والفقر.
- علم الأخلاق الذي هو فرع الحكمة العملية ينظر إلى البعد الروحي في وجود الإنسان ويلفته إلى حقيقة المصير.
- موضوع علم الأخلاق هو نفس الإنسان التي تتقبّل التغيير وترفض الثبات والجمود.
- شروط السفر: ـ أن يدرك الإنسان حقيقة وجوده المرتبط بالوجود المجرد عن المادة.

  ـ أن يفهم قابلية النفس للتغيير.

  ـ أن يمتلك الرؤية الكونية الشاملة للوجود: فهم التوحيد.

  ـ أن يدرك حقيقة دعوة الأنبياء التي ختمت بقول الرسول الأعظم (ص): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

  ـ أن يتّبع تعاليم الأولياء والأئمة (ع) في تحقيق الوصول إلى تمام هذه الأخلاق.

  ـ أن يحيط بحقيقة هذه الغاية ويفهمها فهماً تاماً.
- برنامج تهذيب النفس هو ما يسمّى بالسير والسلوك، وهو ممارسة الرياضة القلبية من خلال سلسلة من العبادات الشريفة لبلوغ غاية الحق والوصول إلى السعادة الحقيقية.

أسئلة الدرس الأول :

١ ـ هل أن الوصول إلى السعادة الحقيقية مقرون بالضياع والخسران في الجوانب المادية وأن على السالك أن يكون عاجزاً وفقيراً؟ أوضح ذلك.

٢ ـ لماذا يذكّر الموت بحقيقة الغاية؟

٣ ـ لو حاولت التخلّص من خُلُق فاسد فيك ولم تستطع، فهل يمكنك إكمال المسير إلى الغاية؟

٤ ـ ما هي علاقة السير والسلوك بعلم الأخلاق؟

٥ ـ ما معنى دس النفس؟

٦ ـ ما معنى تزكية النفس؟

٢ معرفة الهدف

١:٢ أول السير: التفكر

إذا نظـرت نظر المتأمل في هـذا الكون الفسيح تجد ان الإنسـان قد امتـاز عن غيره من الكائنات الحية بميزة العقل والتفكير. وهـو يستخدم هذه القوة منذ أن يفتح عينيه على عالم الـوجود للتمييز بين الصحيح والسقيم والنافـع والضار وما يسلك به سبل السعادة والعيش الهنيء وما يؤدي إلى شقاوته وتعبه، يفعل ذلك لأنه رأى بحكم وجدانه نتائج هـذا العمل الذي أوصل البعض إلى قمة السعادة والكمال.

فإذا فكر في أحـواله ونظر إلى معـاشه، وجد أنه يحتـاج إلى ما يؤمن لـه بقاءه واستمـراره على قيـد الحيـاة، فـلا ينفك عن طلـب الماء والغـذاء وتنفس الهواء والارتبـاط بـالأرض والشمس والناس الـذين يتبـادل معهم المنـافع ويـدفع بهم المخاطر. ولكنه يرى أيضاً أن كل هذه الأمـور محتاجة في وجودها وبقائها أيضاً، وهي مثلـه لا تنفصل لحظـة واحـدة عن الطلب والاستمـداد من الغير: **فالكل محتاج فقير، ينطق بلسان وجوده بكلمـة الفقر والفاقة**. فمن الذي يمـدها ومن الذي يعطيها ولولاه لما بقيت على قيد الحياة أو في دائرة الوجود: **إنه الغني المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد والكل محتاج إليه وهو «الله عز وجل»**.

فأدنى تدبـر في هذا العـالم يوصلنا إليـه تعالى، ويجعلنـا نؤمن بـوجود الخالق الغني الذي به تقوم حياة كل شيء:

﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني﴾ .

فإذا عرف هـذا توجـه إليه في بحثه عن السعـادة، وطلب منه الهدايـة وسأله طريق النجاة بقلب والهٍ وعقلٍ حائرٍوعيون دامعة . . .

وإذا بنسيم الرحمة الإلهية يخاطبه بلسان «**ووجدك ضالاً فهدى**» ويمسك بيده بكلام الأولياء الصديقين :

«لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم إلى ما متع به الأعداء من زهـرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكـانت دنياهم أقـل عندهم مما يطـأونه بأرجلهم ولنعموا بمعرفـة الله تعالى وتلذذوا بها تلذذ من لم يـزل في روضـات الجنـان مع أوليـاء الله، إن معرفة الله تعالى أنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة ونور من كل ظلمـة وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم» . الامام الصادق (ع) .

حتى إذا سمع هذا الخطاب اشتعل وجـوده وازدادت حيرته، واختلط الفرح والنشاط عنده باليأس والقنوط، فهو لا يدري كيف يصل إلى معرفته تعالى، وما هي معرفته تعالى؟

وهل هي في دروس العقائد أو الفلسفة أو في اصطلاحات العرفاء والصوفيين أم ماذا؟ !

ولكن اليـد الرحمانيـة تمتـد لانتشالـه من حيرتـه، وتـرسل إليه رسل الهدايـة والسعـادة فيخـاطبـونـه بـالخطـاب الآدمـي والنـوحي والإبـراهيمي والموسـوي والعيسوي والمحمدي (ص) قائلين :

«من عرف نفسه فقد عرف ربه» .

وهنا بداية الطريق وشروع السفر وانطلاقة الترحال :

فهيا نبحث معاً عن هذا مستمدين بعون الـرب الودود، ومتمسكين بحبل الولاية المتين لنـرى كيف يمكن أن تكون معرفة النفس سبيلاً للوصـول إلى معرفة الرب التي هي السعادة الكبرى والغاية القصوى :

حوار:

لما صار أخوانا «م» و «ح» متعبين من كثرة العمل وضجيج المدينة، اتفقا على الصعود إلى قمة الجبل المحاذي علّهما يستنشقان هواءً عليلاً ويستريحان من تعب النهار ويسرحان بفكرهما المشوش إلى آفاق السماء والأرض .

ولما وصلا إلى أعالي الجبل أحسا براحة نفسية كبيرة وهما يشرفان على المدينة الكبيرة التي اتشحت بسواد المداخن وضباب المصانع . فقـال ـ م ـ لصديقه وهو يحاوره :

ألا ترى ذاك الرجل الذي يجمع المال قرب القصر الرمادي؟

ح ـ نعم إنني أراه بوضوح، فهو يعد أمواله ويضعها في صندوقه الذهبي .

م ـ هذا الرجل ما زال يعد المال منذ أكثر من عشر سنوات .

وهل ترى ذلك الحاكم داخل المعسكر؟

ح ـ أجل، إنه يجهز جيشه ويمده بالسلاح ويشرف على تدريبه .

م ـ وهو يفكـر بغزو البلد المجاور، ولـو كنت تعرفه شابـاً، فهو منذ ذلك الوقت يصعد سلم الزعامة ويتسلق المنصب تلو المنصب .

وهناك، هل ترى ذلك الرجل يدخل إلى المكتبة العامة؟

ح ـ صاحب اللحية البيضاء والكتب السوداء؟

م ـ نعم، فهذا عالم كبير ما زال يدرس ويقرأ منذ أكثر من ٥٠ سنة .

ح ـ حسنـاً، فما فائدة كل هـذا، فنحن جئنا إلى هنـا لنرتـاح من المدينة، وإذا بها تلاحقنا إلى هنا . .

م ـ إنني لا أستطيع أن أكف عن التفكير في هذه الأمور، لأنني أجد نفسي مثل هؤلاء أبحث عن أشياء كثيرة، أجدها أحياناً، وأحياناً لا أظفر بها، ولا أعرف سر هذا البحث الدائم الذي لا يعرف الملل . فهل تفتش معي؟

٢:٢ وفي أنفسكم افلا تبصرون

ولا أظن أن هذا السؤال يتـوجه إلى صديقنا العزيـز فقط ، وإنما كل واحد منا يحاول الآن أن يجد إجابـة شافية عليه . لأن الإنسـان الذي يعتقد بـوجود الخالق المعبود سوف يبحث مباشرة عن العـلاقة التي تربطه به ليتوجـه إليه ويؤدي حقه فيجعل كل أعماله وحركاته وسكناته نابعة من طبيعة هذه العلاقة . فإذا دققنا في الحوار الذي جرى بين أخوينا ، يمكننا أن نفهم سر ما نبحث عنه .

نحن نريـد أن نصل إلى معرفة الغـاية والهدف الذي خلقنا الله تعـالى لأجله ، لأن معرفة هـذا الأمر تقع على رأس كل المعارف بعد معرفة المبـدأ ، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«رحم الله امرء عرف من أين وفي أين وإلى أين» .

وهذه المعرفـة تؤثر في كل عمل يريد أن يقوم بـه الإنسان فهناك الأعمال التي توصل إلى الهدف وهناك ما يحرف عـن الهدف . وإن عدم الوصول يستتبع حسرة عظـيمة وخسراناً كبيراً ليس له حد ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام :

«العامل من دون بصيرة كـالسائر على غير الطريق
لا تزيده كثرة السير إلا بعداً» .

وأمـا ـ م ـ فإنـه أشـار في حديثـه إلى تلك الأمـور التي تجمع بين كل البشر ، وتوجد في أعماقهم وتظهر منذ ولادتهم . وهي تسمى بالأمور الفطرية التي يمكن من خلال التفكر فيها معرفة الغـاية . فأنت إذا طلب منك أن تتعرف على الغاية من صنع رجل آلي من دون أن تعطى أيـة معلـومات عنـه لأمكنك أن تجيب على ذلك من خـلال تفكيكه وتجزئتـه ، فتجـد على سبيل المثـال أن يديـه ليس فيهما أصابع وهما تتحـركان بنحو معين كأن يكـون ذلك إلى فوق بشكل مستقيم وأنهما تستطيعان حمل الأثقال الشديدة وأن جهاز عقله الإلكتروني يستقبل أنواعاً معينة من الأوامر وهـو لا يصور ما يراه ولا يسمع شيئـاً و. . وبعد التحليل والتفكيك يمكنك أن تخرج بنتيجة قائلاً :

«إن هذا الرجل مصنوع لنقل الأغراض من رفٍ إلى رف»

وتكون إجابتك صحيحة تماماً، ذلك لأنك سلكت طريقاً سليماً في سبيل الوصول إلى معرفة الواقع والحقيقة. وهذا الأمر ينطبق على الإنسان أيضاً، فإن النظر والتدبر في تركيب النفس الإنسانية يهدينا إلى معرفة الغاية التي خلقنا لأجلها، وإذا أردنا أن نقوم بهذا فعلينا أن نأخذ الأمور التي خلقت في الإنسان وهي أجزاء أساسية لا تنفصل عنه، ولذلك ننظر بعين الاعتبار إلى الأمور الفطرية فيه. فالتدخين قد يكون عند كثير من الناس حاجة لا يمكنهم أن يبتعدوا عنها ويتخلصوا منها بسهولة، ولكننا لا نستطيع أن نعدها حاجة أساسية لأنها غير فطرية بمعنى أنها لم تخلق فيهم وإنما كانت نتيجة تربية ما أو أجواء عاشوها في حياتهم وأيضاً فهي لم تكن قبل هذا العصر ولم يعرفها الناس. ولذلك فإننا إذا أردنا أن نكتشف الحاجات الأصيلة التي توجد في الإنسان. علينا أن نبحث عن تلك الأمور التي توجد في كل الناس وهي مولودة معهم لا تنفك عنهم ولا يمكنهم أن يتخلوا عنها بأي نحو من الأنحاء. وقد أشار صديقنا إلى تلك الأمور، وهي:

١ ـ حب الاستطلاع وطلب العلم.

٢ ـ السعي لامتلاك القدرة والسيطرة.

٣ ـ الحاجة للارتواء العاطفي.

فإن كل إنسان منذ أن يفتح عينيه على هذه الدنيا لا ينفك لحظة واحدة عن السؤال بكيف؟ ولماذا؟! وأين؟ وو. .

فهو يريد أن يعرف كل ما حدث أمامه ويسأل عن سببه. وحتى ذلك الإنسان الذي يقمعه مجتمعه أو بيئته فلا يدعونه يتعلم ويسلك مدارج العلم والمعرفة، حتى هذا الإنسان لا يمكنه أن يقف ساكناً أمام حدوث ظاهرة غريبة أمامه. فأول شيء يحدث فيه عند ذلك هو الاستفسار، وإذا أراد السؤال ربما تذكر أنه غير مسموح له بذلك فيسكت على مضض أو يعتقد بالخرافات التي يؤمن بها عجائز القرية أو الحي. هذه الحاجة الدائمة إلى المعرفة لا تنفصل عن

الإنسان وإلا خرج عن حدود الإنسانية وصار في مصاف الحيوانية .

وكذلك السعي الدائم لامتلاك القـدرة عبر جميع الأشكال كالمال أو التسلط أو حتى العلم والمهـارة والتخصص . فإن هــذه حـاجـة لا ينفك الإنسـان عن طلبها ، فالراحـة عنده هي للقيام مرة ثانية بنشـاط أكبر لامتلاك القدرة وإشباع حـوائجه . وغـالباً مـا يحدث أن يستغل الإنسان قـدراته الـذاتية بأسلـوب بشع للوصول إلى القدرة العظيمة والسيطرة الواسعة ، أما ذلك الإنسان المستعبَد الذي يئن تحت سيــاط أسيـاده ، فإنـــه وفي أعماق ذاتـه لم ولن يتخلى أبـــداً عن حلم صيرورته سيداً كسيده أو أقوى منه حتى ولـو رضي بذلك في الظاهر ولم يثر عليه ويخرج عنه .

وإذا نظرنا إلى الإنسان مرة أخرى وجدناه منذ صغره دائم البحث عن الارتباط بمن يؤمن له الحاجة العاطفية . فهذا بُعدٌ مهم في حياة المخلوق البشري ، يسعى للحصول عليه عبر إقـامة علاقات مع الآخـرين ، ويكون ذلك في أول الأمر مع والديه واخوته ثم زوجته وأولاده وأقاربـه واخوانه وو . . فإن هذه حاجة لا ينفك عنها الإنسان بأي شكل من الأشكال ، ومن يبتعـد عنها في الظاهر لا يمكنه أن يقضي عليها ، وحتى أولئك الـذين يعتزلـون الناس ويخرجـون إلى الطبيعة ، فإن الطبيعة عندهم تصبـح الممد الأول بالشراب العاطفي ، فتراهم يحبـون الحيوانات والأشجار والأنهار والورود وغير ذلك .

وتنضـوي تحت هــذه الحاجـات آلاف الحاجـات الأخـرى الأصيلــة منهـا والثانوية . وهي حاجات لا تعرف الشبع ، وكلما ازداد منها الإنسان ازداد عطشاً واحتياجاً ، فقد أودعت في أعماقه بهذا الشكل وستظل بهذا الشكل مهما وصل في العلم والمعـرفة والقـدرة والحب . ألا ترى أن العـالم هو أكثـر الناس طلبـاً وحباً وشوقاً للتعلم والمعـرفة ، وأن الذي يسيطر على البلاد الواسعـة والجماهير المليونية والأسلحة الفتـاكة هـو دائم البحث عما يخرج عن سيطـرته ليسيطـر عليه ، وأن الذي ينشأ في جو عـاطفي سليم مفعم بالمحبة تجده أكثر الناس شوقـاً للارتباط

بالذين يمدونه بهذا الفيض المعنوي .

تأمل جيداً تجد أنها حاجات أصيلة لا تنتهـي عند حد أبداً وهي خلقت فينا هكذا وستبقى هكذا . وفي هذا الأمر يكمن السر الذي نبحث عنه :

ـ فـالله تعالى خلق فينا هـذه الأمور وركب أنفسنـا على نسق الاحتياج الدائم .

ـ وهو الحكيم الذي لا يفعل شيئاً عبثاً .

فتكون النتيجة : أنـه تعالى قد خلقنا لنسعى وراء هـذه الحاجات التي لا تعرف الشبع وتأمينها .

فمن الذي يؤمن لنا احتياجنا؟

وهل تكفي الأرض كلهـا والمعارف جلهـا والارتباط بـالبشر جميعاً لسـد هذه الحاجات؟

فالأرض محدودة والمعارف متناهية والبشر مهما كثروا معدودون .

ولكن حاجاتنا لا تعرف الشبع . فمن يسدها؟

والجواب تلهج به عقولنا وفطرتنا وضمائرنا وكل وجودنا :

«إنه الغني المطلق»

فهل عرفت لماذا خلقنا؟ !

قال الإمام الخميني قدس الله نفسه الزكية :

«إن الإنسـان ليصبو فطـريـاً وبشكل مطلق إلى نيل كل كمال وأنتم تعلمـون جيداً أن الإنسان يميل إلى أن يكون قدرة مطلقـة في العالم ، ولو أمسك هذا العالم في قبضتـه وبسط سلطته ، فإن قيل لـه أن هناك عـالماً آخر غير هـذا فإنه يصبـو فطرياً ليتسلط على ذلك العالم أيضاً ، وهكذا ، ومهما اكتسب الإنسان من العلوم

فهو يتوق أيضـاً إلى كسب علوم أخرى إن أخبر بوجـودها، ولهذا يجب أن تكون هناك القدرة المطلقة والعلم المطلق ليتعلق قلب الإنسان بهما وهذه القدرة المطلقة والعلم المطلق هما الله تعـالى الـذي نتـوجـه كلنـا لـوجـوده حتى ولـو لم نعـرف ذلك»(*).

فتفكـر في هذا الكـلام جيـداً، هل أنك تـذهب لسد حـاجـاتك إلى من لا يملكها، وتبحث في هذه الدنيا الفانية التي متاعها قليل وخطرها كثير عما تصبو إليـه نفسك فلا شك أنك لا تخالفني الإجـابـة. ذلك لأنك لو كنت تحتـاج إلى عشرين رغيفاً لما ذهبت إلى من لا يملك أكثر من خمسـةِ أرغفة، لأنك تعرف أنه لا يشبع حـاجتك، فكيف إذا كـانت حـاجـاتـك هي طلب الكمال من العلم المطلق والقدرة المطلقة والحياة اللامتناهية.

فالله سبحـانه وتعـالى خلقنا لنسير إليـه، وجعل زاد هذا السير تلـك الفطرة الإنسانيـة الصافيـة التي أودعها في أعماقنـا، فإذا فكرنـا فيها اهتـدينا إلى الهدف العظيم والغاية الكبرى.

قال تعالى:

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾.

وسرُّ «لقاء الله» عند المؤمنين هو أن يصبـح الإنسان متحققاً بحقيقة الكمال، وقد جاء في الحديث القدسي عن رسول الله (ص) أنه قال:

قال تعالى:

«... مـا زال عبـدي يتقـرب إلي بـالنـوافل حتى أحبـه، فإذا أحببتـه كنت سمعـه الـذي يسمع بـه ولسانـه الذي ينطق بـه وعينه التـي يبصر بها ويده التي يبطش بها».

(*) من رسالة الامام (قده) إلى غورباتشوف.

وجاء في الحديث القدسي الشريف أيضاً:

قال تعالى:

«يا ابن آدم أنا غني لا أفتقر أطعني فيما أمرتك أجعلك غنياً لا تفتقر، يا ابن آدم أنا حي لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حياً لا تموت، يا ابن آدم أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون».

فيا أيها الغارق في بحر الدنيا قم، فربك يناديك ويناجيك **«واخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى»**، ويخاطبك بكلام موسى **«واصطنعتك لنفسي»**، ويبث إليك بنفحات ربانية صادقة مشفقة **«يا عبدي خلقت الخلق لأجلك وخلقتك لأجلي فهل تفر مني»**، فإلى متى تبقى بعيداً عن هذا الصراط الإنساني وتظن أنك تقدر على السلوك بهذه القدم العرجاء والعنان المرخي والقلب الغافل. ألم تسمع قوله تعالى مخاطباً حبيبه (ص):

﴿واستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾ (هود ١١٢).

قال الإمام الخميني (قده):

«وإن الميزان في أول السير هو القيام لله، سواء في الأعمال الشخصية والفردية أو النشاطات الاجتماعية»

واعلم أن مراجعة كل الأفكار والاعتقادات التي تحملها والتي ورثتها عن هذا المجتمع يقع ضمن القيام لله، فغالباً ما نحمل أفكاراً وآراء خاطئة عن الهدف الذي خلقنا لأجله إلى الدرجة التي يؤثر هذا الأمر على مصيرنا. وغالباً ما نقنع أنفسنا بأمور وهمية لمجرد أننا آثرنا الراحة وعدم التفكر، فلا تظنن أنك تقدر على

الـوصـول إلى السعـــادة التي تصبـو إليهـا دون التفكير في أحـــوالك ووجـودك ومبدئك .

وقم مغتنماً عمـر الشبـاب ، حيث يكـون قلبك ملكـوتيـاً ولطيفـاً ، يقبل أن يتخلق بأخلاق الـروحانيين بسهولـة ويسر، وهذبه بـالرياضـات السليمة حتى يلقى الله سليماً خالياً من كل غش وزيف . قال تعالى عن لسان إبراهيم (ع) :

﴿ولا تخزني يوم يبعثون * يـوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء ٨٩) .

وانزع عن عقلك جلباب الحيرة ، فإن الطريق واضح والأدلّاء ينتظرون الحيارى ليأخذوا بأيديهم إلى سبل السلام . فإذا فعلت ذلك صار قلبك مستودعاً للأنوار الـرحمانية ومـرآة للمعارف الإلهيـة وشاهـداً للحقيقة الكبرى ، واعلم أن كل مـا يمنعك عن فهم هذه الحقـائق اللطيفة إنما هـو من تلك الحجب الظـلمانية التي أسدلتها العلاقة مع عالم الطبيعة والإنس بالدنيا وشهواتها .

خلاصة الدرس الثاني:

- التفكّر في أحـوال الموجودات ينبّه إلى احتيـاجها وفقـرها وفاقتها ويهدي إلى الغني المطلق الـذي به تقوم حياة كل شيء.
- عنـدمـا يبحث الإنســان عن السعـادة ويلجأ إلى الغني المطلق لطلب الهدايـة منه، يأتيـه الجواب: أن «معرفتــه» تعالى هي السعادة الحقيقية وهي طريق النجاة.
- بعد معرفـة الله، يبدأ بالبحث عن العلاقة التي تـربطه به سبحانـه وعن الغايـة والهدف الذي خلقـه الله تعالى من أجله. فيعينه على ذلك النظر والتدبر في النفس الإنسانية والتفكر في حاجاتها الفطرية.
- الأمور الفطرية في نفس الإنســان هي الحاجات الأصيلة غير المكتسبة والمشتركة بين جميع أفراد البشر وهي:

١ ـ حب الاستطلاع وطلب العلم.

٢ـ السعي لامتلاك القدرة والسيطرة.

٣ـ الحاجة للإرتواء العاطفي.

وهــذه الحاجات لا تعـرف الشبع مطلقـاً، فكلما ازداد منها الإنسان ظل محتاجاً وعطشاً .

- الله خلقنا على نسق الاحتياج الدائم ولكنه الحكيم الذي لا يفعل شيئاً عبثاً، لذلك نفهم أن الله خلقنا من أجل السعي وراء هذه الحاجات الفطرية لتأمينها.
- إن تأمين هـذه الحاجـات التـي لا تعـرف الشبع بشكل مطلق لا يكون عند من لا يملكها أو من يملك قليلاً منها، بل يكون عند من يملكها وهو الغني المطلق.
- فيصبح الهدف الذي خلقنا الله لأجله هو التحقق بحقيقة

الكمال حيث العلم المطلق والقدرة المطلقة والحياة الدائمة.

● مقدّمات السير نحو الهدف:

ـ الالتزام بأوامر الله ونواهيه.

ـ القيام لله في جميع الأعمال الشخصية والفردية أو النشاطات الاجتماعية.

ـ مراجعة كل الأفكار والاعتقادات.

ـ تهذيب النفس واغتنام عمر الشباب لذلك.

ـ متابعة الأدِلاَّء (ع) ليأخذوا بأيدينا إلى سبل السلام.

أسئلة الدرس الثاني:

١ ـ لماذا أودع الله فينا حاجات أصيلة لا تعرف الشبع؟

٢ ـ كيف يمكنك أن تعبّر عن الغاية التي أرادها الله لنا؟

٣ ـ كيف يكون النظر والتأمّل في النفس هادياً إلى معرفة الهدف؟

٤ ـ كيف تفسّر التناقض ما بين خلق الإنسان على أساس الوصول إلى الكمال، ودعوة العرفاء إلى ترك الأنانية وحب الذات؟

٥ ـ ما معنى قول أمير المؤمنين (ع): «كل وعاء ينضح بما فيه الا وعاء العلم».

٣ إزالة الحجب والموانع

اذا أدرك الانسان ان الله هو الفيض المطلق الذي وسعت رحمته كل شيء، وعلم ان نفسه وعاءٌ لا حد له، يتساءل في سبب عدم نيل هذا الفيض.
فما هو السبب الذي يبقيه محروماً؟!

إذا أدرك الإنسان أن هذه الدنيا دار ممر وأن سفره فيها سفر نفساني لا يمكن أن يتحقق إلا بتهذيب النفس وإصلاحها بقدم العبودية وتوحيد المعبود، واشتعل في قلبه وقود الشوق إلى المبدأ الأول وهام على وجهه طلباً للمحبوب الأزلي، عندها سوف يقف على مجموعة من الحجب والموانع التي حالت بينه وبين اللقاء ردحاً طويلاً من الزمن وأعاقته عن الوصول والالتحاق بركب الناجين.

فكلما أراد سفراً هجمت عليه سلسلة من التعلقات لتنصب عليه كالسيل الهادر تريد إغراقه في مستنقع الخيبة والخسران. وإذا قام برياضة حالت بينه وبين إرادة طلب المحبوب. فالسالك ما لم يقم أولاً بإزالة هذه العوائق وتحطيم هذه الموانع وإزالة تلك الحجب فسوف يبقى أسيراً لها غير قادرٍ على تحصيل الآثار النورانية والاستفادات المعنوية للأعمال الإلهية والفرائض الربانية.

١:٣ مثال المرآة

إن هذه الحجب المعنوية تشبه تلك الحجب المادية التي تعتبر إزالتها شرطاً أساسياً في تحقق الإنعكاس في المرآة الصناعية التي يستخدمها الناس لرؤية الأشياء بصورة واضحة، تلك الحجب في المرآة أربعة هي:

١ - عدم تمامية الصنع، فالمرآة لا يمكن أن تعكس أية صورة مما لم يكتمل صنع جميع أجزائها وتركيبها بشكل تام.

٢ ـ عدم توجيه المرآة إلى الصورة التي نريد أن نراها من خلالها فلو بقيت المرآة مدة طويلة من الوقت بعيدة عن الصورة التي نريدها فلا يمكن أن نراها .

٣ ـ اتساخ المرآة أو صدأها : فالمرآة المتسخة والملوثة لا تعكس الصورة بشكل واضح ، وإذا زادت الأوساخ وتكاثف الغبار تفقد المرآة قابلية عكس الصور وإظهارها .

٤ ـ وجود جدار أو ساتر بين المرآة والصورة المطلوبة . فلو بقينا طوال عمرنا ننظر إلى المرآة على أمل أن نرى ما هو موجود خلف الجدار لا يمكننا ذلك أبداً .

إن هذه الحجب المادية تسهل علينا التعرف على الحجب المعنوية التي تقف حاجزاً خطراً أمام السالك وتمنعه من السير إلى الله تعالى .

الحجب المعنوية

٣: ٢ الحجاب الاول

■ **حجاب عدم القابلية والاستعداد الذاتي للسفر إلى الله** : فكما أن عدم تمامية الصنع في مثال المرآة لا يحقق انعكاس الصورة كذلك فإن الإنسان ما لم تتم استعداداته وترتفع قابلياته إلى مستوى فهم حقيقة السير والسلوك وتقبل التكليف الإلهي فلن يتمكن من استقبال الآثار النورانية للأعمال وسوف يبقى محروماً من الإستفادات المعنوية للعبادات . كالصبي أو المجنون الذي اختفت قوته الإدراكية ، بحيث لم يعد قادراً على استيعاب التعاليم الإلهية وأهدافها وغاياتها ومقدماتها كالإخلاص في النية والتوجه والحضور القلبي مما هي شروط تحقق الأجر والثواب والآثار الشريفة للأعمال والعبادات . واعلم أيها الأخ الإيماني أن هذا الحجاب لا يقتصر على الصبيان والمجانين ، بل قد يكون أحدنا واقعاً فيه وهو لا يدري ، ألا ترى أننا قد عطلنا هذه النعمة الإلهية ، التي هي العقل ، وحجبناها عن الاستفادات الحقيقية وانشغلنا بحل المعضلات العلمية التي لا تخرج عن حدود الاعتباريات والوهميات فصرنا نفتخر بقوتنا المكرية وعدم تمكن الآخرين من غشنا وخداعنا . لقد اقتنعنا بذلك وبمجموعة الاصطلاحات التي

حفظناها وإن كانت من مفاهيم العرفان والتوحيد. وأدل دليل على هذا أننا إذا جلسنا بين يدي القرآن الكريم وجلنا ببصرنا في محكم آياته وجدنا سداً منيعاً يحول بيننا وبين فهم آياته، وهو القائل: ﴿**ولقد يَسّرنا القرآن للذِّكر فهل من مدِّكِر**﴾. أما علمت أن الحقائق الربوبية والمعارف الإلهية التي أشرفها التوحيد لا تخرج عن نطاق الفطرة الإنسانية، وهي غير تلك الاصطلاحات التي ابتكرها أهل الفنون من العلوم، فإذا سمعت منها شيئاً قلت لا أفهم، أو لا أقدر على استيعاب ما يقال. وليس ذلك إلا لأننا قد عطلنا قدرة التعقل والتفكر التي ميز الله الإنسان بها وشرفه على سائر المخلوقات بحيازتها. انظر إلى كلام أمير المؤمنين ومولى المتقين تجد أن الصفة الأولى التي تميز السالك إلى الله هي أنه قد أحيا عقله، فصار قادراً على استقبال آثار الأعمال والسير قدماً في مضمار تهذيب النفس واصلاحها.

«قد أحيا عقله وأمات نفسه، حتى دق جليله ولطف غليظه وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه». نهج البلاغة.

وقال رسول الله (ص):

«ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل. ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته . . . وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل

عبـادتهم مـا بلغ العـاقل، والعقـلاء هم أولـو الألباب، الـذين قال الله تعالى عنهم ﴿وما يتـذكر إلا أولو الألباب﴾».

وعنه صلى الله عليه وآله:

«إذا بلغكم عن رجل حسن حال فـانظروا في حسن عقله، فإنما يجازى بعقله».

فكفى بهذه الكلمات النـورانية بيـاناً في أهميـة العقل ودوره. واعلم أن العقل نعمة الهية تزيد وتنقص بقدر سلـوك الإنسان وتعامله معه وما قول أمير المؤمنين (ع) في وصف السالك إلى الله إلا دليل واضح على هـذا الأمر. فالسـالك أول ما يقوم بـه هو أن يحيي في نفسه القدرة على التفكـر والتدبر وفهم الأمـور لأنه يعلم أنها شرط حصول الكمال كما قال العلامة الطباطبائي في تفسيره «**إنه لا كمال دون معرفة**»، والمعرفة لا تحصل دون ادراك وتعقل.

وحجب العقل كثيرة، أخطرهـا الذنوب والمعاصي واتبـاع الهوى كما قال أمير المؤمنين (ع):

«ذهاب العقل بين الهوى والشهوة».

وكما قال ابنه الباقر (ع):

«مـا دخل قلب امـرء شيء من الكبر إلا نقص من عقله».

وقال الكاظم عليه السلام:

«من سلط ثـلاثاً على ثـلاث فكأنما أعان هـواه على هدم عقله: من أظلم نـور فكره بطـول أمله، ومحا طـرائف حكمته بفضـول كـلامـه واطفأ نور عبرتـه

بشهوات نفسـه، ومن هدم عقلـه أفسد عليـه دينه ودنياه».

فإذا عرفت هذا، فانهض إلى طلب العلم والاشتغـال به، فإنه رياضة العقل الأولى وبها يسير العقل في مرضـاة الله فيصبح قائداً لـلإنسان يوصلـه إلى مواطن النجـاة والفلاح. قـال أمير المؤمنين (ع): «**من تـرك الاستماع عن ذوي العقـول مات عقله**». فإذا لم تتمكن من احياء عقلك بهذه الطـريقة، فلا تيأس من روح الله، وابدأ بالاستمـداد من الرحمة الإلهية عبر أبواب التضرع والدعـاء والاستكانة وسيل الـدمـوع والبكـاء. فلعل ذلك الحجـاب كـان غليظـاً لا ينفع معـه مجرد البحث والـدرس. وهذا مشهود في تجارب وسير بعـض العظماء الذين عـانوا في بداية حياتهم من ضعـف العقل وقلة الاستيعاب الفكري. **وهم يوصون بقراءة زيارة عـاشوراء المعـروفة والمواظبة عليهـا، لأن لها مدخليـة عظيمة في إزالـة هذا الحجاب وتحطيمه**، كيف لا وسيـد الشهـداء عليـه السلام هـو المقـام النـوراني المقدس الذي اختص لإزالـة الحجب المعنوية، والتوسل بـه لا يخلو من ألطاف كبيرة في هذا المجال.

٣:٢ الحجاب الثاني:

حجاب عدم التوجه: وهو ما يعبر عنه بالغفلـة، لأن الإنسان يكون أحياناً في تمام قوته العقلية ولكنه غـافل عن المقصد الحقيقي أو كيفية السير إليه. فهذا الحجاب غليظ، لأن الإنسان لا يـدرك أنه واقع فيه، كالنـائم لا يدري بما يدور حوله. قال رسول الله (ص):

«الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا».

وللأسف، فإن حصول الإنتباه واليقظة في ذلك العالم لا ينفع شيئاً، بل يزيد الإنسان حسرة وندامة: «**يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله**».

فقم أيها المسكين من سبات الغفلة وأحيي قلبك بالموعظة وذكره بالموت «كفى

بالموت واعظاً» وتدبر في أحوال الماضين وانظر في أسباب السعادة والشقاء واعلم أن حيــاة القلـوب لا تتم دون حصــول الانتبــاه والقيـام لله في جميع الأحــوال والأوقات .

٤:٣ الحجاب الثالث:

حجاب الذنوب والمعاصي : وهي تزيـد القلب كدورة وظلمانيـة فتحجبه عن مشـاهدة الجمال الحقيقي وتمنعـه من استقبال أنـوار الهداية الـرحمانية وتجعلـه في معرض تسلط إبليس وجنوده الغدارة . ومما جـاء عن باقر علوم الأولين والآخرين (ع) عن رسول الله (ص) :

> **«إن المؤمن إذا أذنب كـانت نكتـة سوداء في قلبـه ، فإن تاب ونزع واستغفـر صقل قلبه منه ، وإن ازداد (تمادى في الذنوب) زادت ، فذلك الرّان الذي ذكره الله تعالى في كتابه ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»** .

إن الذنوب إذا تكاثرت أصبحت حجابـاً غليظاً يمكن أن تؤدي بالسالك إلى أن يترك السلـوك ويـرمي عنـان السفـر، بل أنـه قـد ينقلب على عقبيـه ويقـوم بمواجهة الدين الحنيف ، كما قال تعالى : **﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيـات الله وكانوا بها يستهزئون﴾** . وللحديث صلة وتفصيل نذكره في عالم الجهاد الأكبر إن شاء الله .

٥:٣ الحجاب الرابع

هو حجـاب الآراء الفاسـدة والعقائد البـاطلة : وذلك بأن يحمل الإنســان مجموعـة من الآراء والعقائد حول تهذيب النفس والعـرفان ، تكون تـارة من جراء الحب الشديد مع الجهل فيعتقـد بأن كل من يعرض بضاعته في هـذا المجال هو من أهل الله وأوليائه المقـربين ، ويقع نتيجة لهذا في حبـائلهم وهم ينصبون شراك

اصطياد القلوب وثناء الناس. أو أن يقال له بأن الأخلاق وتهذيب النفس مسألة مقتصرة على العرفاء الكبار الذين ينزوون في بيوتهم ويعتزلون الناس، وأن تحصيل هذا الأمر يتطلب جهداً كنقل الجبال برموش العين. أو أن العرفان هو وليد مدرسة الفرس واليونان القديمة وقد أدخله أولئك على الإسلام، وليس الدين إلا المعاملة ولا شيء من هذا أو ذاك.

قال الكاظم عليه السلام:

«أعظم الناس ذنباً وأكثرهم اثماً على لسان محمد (ص) الطاعن على عالم آل محمد والمكذب ناطقهم والجاحد معجزاتهم».

فاسمع ما يقوله أحد علماء آل محمد وحامل رايتهم، وإياك أن تحمل كلامه على مجرد الادعاء، فقد قال خاتم العرفاء الإمام الخميني (قده)، في التنبه إلى أحد مكائد الشيطان:

«اعلم أن أسوأ أشواك طريق الكمال والوصول إلى المقامات المعنوية والتي هي من الأعمال الكبرى للشيطان، قاطع الطريق، هو انكار المقامات والمراتب الغيبية والمعنوية حيث أن هذا الانكار والجحود هو رأسمال جميع الضلالات والجهالات وسبب الوقوف والجمود ومميت للشوق الذي هو براق الوصول إلى الكمالات» (الأربعون حديثاً).

وقال أيضاً:

«ومن غرائب الأمور ما يقوله البعض في مقام الطعن والإشكال، من أن ما يقوله أئمة الهدى عليهم السلام لإرشاد الناس ينبغي أن يطابق الفهم العرفي

ولا يجوز أن يصــدر منهم غير هــذا من المعــاني الدقيقة الفلسفية أو العرفانية. إن هذا افتراء فجيع جداً وتهمة كبيرة الفظـاعة ناشئة من قلـة التدبر في أخبـار أهل البيت عليهم السـلام وعـدم الفحص فيها إضافة إلى أمور أخرى...»

(الأربعون حديثاً)

خلاصة الدرس الثالث:

- لا يمكن أن يتحقق سفر الإنسان إلى المحبوب إلاَّ بتهذيب النفس وإزالة الحجب عنها وتحطيم العوائق والموانع، وإلاّ بقي الإنسان أسيراً غير قادر على تحصيل الآثار النورانية والاستفادات المعنوية للأعمال والفرائض الإلهية.
- أول الحجب المعنوية التي تقف حائلاً بين السالك ولقاء المحبوب، حجاب عدم القابلية والاستعداد الذاتي للسفر: وهو تعطيل العقل عن فهم حقيقة السير والسلوك وعدم تقبّل التكليف الإلهي، وحجبه عن الاستفادات الحقيقية بالإنشغالات الاعتبارية والوهمية.
- إحياء العقل يكون بالنهوض إلى طلب العلم والاشتغال به، أو بالتضرّع والدعاء والاستكانة والتوسل بأهل بيت العصمة سيما سيد الشهداء (ع).
- الحجاب الثاني هو حجاب الغفلة أو عدم التوجه: وهو غفلة القلب عن المقصد الحقيقي أو كيفية السير إليه. ويتم إحياؤه: بالموعظة، والتذكير بالموت، والتدبّر في أحوال الماضين، والنظر في أسباب السعادة والشقاء، والقيام لله في جميع الأحوال والأوقات.
- الحجاب الثالث هو حجاب الذنوب والمعاصي: وهي تمنع السالك من استقبال أنوار الهداية الرحمانية وتجعله في معرض تسلط إبليس وجنوده بحيث يؤدي به ذلك إلى رمي عنان السفر بل قد ينقلب على عقبيه ويحارب الدين.

● الحجـاب الـرابع هـو حجاب الآراء الفـاسـدة والعقـائد الباطلة التي يكون منشؤها:

ـ الأخذ من كل مَن يعرض بضـاعته في هذا المجال نتيجة الحب الشديد لسلوك هذا الطريق.

ـ الاعتقاد بأن الأخـلاق وتهذيب النفس مسألة مقتصرة على العرفاء الكبار المنزوين في بيوتهم.

ـ الاعتقاد بـصعوبة تحصيل هذا الأمر.

ـ الاعتقاد بأن العرفان هو وليد مدرسة الفرس واليونان.

أسئلة الدرس الثالث:

١ ـ أذكر الموانع التي تقف سدّاً بين السالك وتهذيب النفس، واشرح واحدة منها؟

٢ ـ كيف تعالج حجاب عدم القابلية والاستعداد؟

٣ ـ ما هو السبيل لإحياء القلب الغافل؟

٤ ـ كيف يساهم تهذيب النفس في الوصول إلى الهدف؟

٥ ـ اشرح هذه الفقرة من الدعاء المعروف:

« إلهي ... وان الراحل إليك قريب المسافة وانك لا تحتجب عن خلقك الا أن تحجبهم الاعمال دونك».

العبودية سبيل الوصول الوحيد

قال الامام الصادق عليه السلام :

«عبد حبر من أحبار بني إسرائيل الله حتى صار مثل الخلال، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل له وعزتي وجلالي وجبروتي لو أنك عبدتني حتى تذوب كما تذوب الالية في القدر (الوعاء) ما قبلت منك حتى تأتيني من الباب الذي أمرتك» .

إن ما يهم السالك بالدرجة الأولى هو الاهتداء إلى منهج واضح ومحدد للوصول إلى الغاية المنشودة وتحقيق رضى الله تعالى . وقد يظن البعض أنه لا وجود لبرنامج محدد وثابت خاصة عندما يطالعون في الكتب الأخلاقية المختلفة ، فإذا بهم أمام مائدة كبيرة حوت من الأطعمة والأغذية ما يشبع الناظرين ، فإن جلسوا إليها يريدون إسكات جوعهم وارواء ظمأهم انتهت السفرة وعاد الجوع من جديد . فأين السبيل إلى منهج الرشاد؟!

لقد وقعنا أسارى هذا الظن الخاطىء لأننا لم نلتفت إلى الكتاب الإلهي والمأدبة الربانية حيث تدعو الإنسان الأشرف إلى الدخول في مضمار العبودية بقوله عز من قائل :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ .

فانظـر إلى هذه الدعـوة الإلهية وتأمل في السعـادات العظيمة التي تحصل من جراء التشرف إلى هذا الصراط القويم، كما ورد في الحديث القدسي المعروف:

«ما تقرب إلي أحدٌ بمثل مـا تقرب بالفرائض، وإنه ليتقرب إلي بالنـوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها».

فالسير بـالفريضة التي هي التكليـف الإلهي أفضل ما يتقرب بـه الإنسان إلى ربه، فإذا أصر على التقرب بإضافة النوافل التي هي المستحبات الإلهية فهو كمن يصر على العبودية لله، مظهراً حقيقة ذله وفقره أمام الغني المطلق فيصل إلى مقام القرب وقد لبس من حلة الكمال الأبدي وتكلل بثوب العز الدائم لأنه انخلع من الأنانية وسجد سجود العبودية مذعناً بلسان الفقر والفاقة:

﴿يا أيها النـاس أنتم الفقراء إلى الله والله هـو الغني الحميد﴾.

وفي الحديث القدسي: قال الله تعالى:

«يـا ابن آدم أنـا غني لا أفتقــر أطعني فيما أمـرتك اجعلك غنياً لا تفتقر، يـا ابن آدم أنا حي لا أموت أطعني فيما أمرتك اجعلك حياً لا تموت، يا ابن آدم أنـا أقـول للشيء كن فيكــون أطعني فيما أمـرتك اجعلك تقول للشيء كن فيكون».

فالـوصول إلى كـرامة البقاء والحيـاة الخالدة والقـدرة العظيمة مشروط بطـاعة المعبـود المطلق. ودخول ســاحــة الكبرياء والعـز الـلامتناهي لا يتم دون الفنـاء الحقيقي وترك الأنا التي هي أم الأصنـام. وهكذا نفهم سر قول رسول الله (ص) بحق علي عليه السلام:

«علي يد الله»

لأنه وصل إلى حقيقة العبودية قائلاً :

«والله ما قلعت باب خيبر ورميت به خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوة جسدية أو حركة عضلية وإنما بنفسٍ بنور ربها مضيئة» .

وفي الحديث المعراجي عند خطاب سدرة المنتهى قال الله تعالى مخاطباً حبيبه (ص) :

«يا أحمد ! فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال : اعرفه شكراً لا يخالطه الجهل وذكراً لا يخالطه النسيان ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين . فإذا أحبني أحببته وحببته إلى خلقي ، وافتح عين قلبه إلى جلالي وعظمتي ، فلا أخفي عليه علم خاصة خلقي ، فأناجيه في ظلم الليل ونور النهار ، حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي واعرفه سري الذي سترته عن خلقي . . ولاستغرقن عقله بمعرفتي ولاقومن له مقام عقله . . . فتقول الروح : إلهي عرفتني نفسك فاستغنيت بها عن جميع خلقك ، وعزّتك وجلالك لو كان رضاك في أن أقطع إرباً أو أقتل سبعين قتلة بأشد ما يقتل به الناس لكان رضاك أحب إلي . . . وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه مني وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي» .

كل ذلك موقوف على أمر بسيط وهو الطاعة . فلماذا نبحث خارج السرب غافلين عن هذه الحقيقة الكبرى ، باحثين عن دواء أمراضنا في بضاعة العطارين

الفاسدة وسوق قطاع الطـرق الكاسدة. فإذا لم تطمئن بهذا البيان فاعلم أنك في خطر عظيم. ولعل أحـدنا يكون خـاطباً لود إبليس اللعين طوال عمـره وهو لا يدري أن سبـب مطروديته لم يكـن مجرد رفض السجود لغير الله لأن هـذا في حد ذاته دليل التـوحيد في العبودية، وإنما تلك المعصية التـي عبر عنها بلسان الكبر والاستعلاء: «**أأسجد لمن خلقـت طيناً**». ولا تغش النفس وتخدعهـا بالقـول: إنني إذا عرض عليَّ مجرد السجـود لآدم فلسوف امرغ التراب تحت قـدميه، وأنت تعلم أن هـذا لن يحدث. ومن جـانب آخـر تتسـاءل عن ضرورة الالتـزام بهذا التكليف أو ذاك، ثم تترك ساحـة الجهاد التي فتحهـا الله لخاصة أوليـائه بحجة خوف الفقـر أو إطعام العيال. فقـد يكون أحدنا إبليسيـاً والعياذ بالله ــ وهو لا يدري ــ حافظـاً لسيلٍ من المبررات والمعاذير عنـد بروز التكليف وصـدور الأمر الشرعي. فحصـول الكمالات العظيمة لا يتم خـارج هذا الصراط القويـم. وما حكي عن الكمالات التي وصل إليها البعض ممن تنكبوا عن جادة الحق ليس إلا أحد تسويـلات إبليس اللعين الذي يقنع الإنسان بما وصل إليه ويـزين له تلك الكمالات الموهومة على أنها كرامات إلهية للأعمال التي قام بها مع مخالفتها للنص الإلهي والسنة الشريفة. ومن هذه التسويـلات الخبيثة: وصول بعض الناس إلى درجة معرفة ما في الضمائر وتفسير المنـامات أو تسخير بعض الكائنات وغيرها. وليس الخطر كامنـاً في هذه القدرات لأنها من جانب آخر قد تكـون كرامة إلهية، وهي من اللوازم الحقيقية للـرياضات الصحيحة وقد عدهـا البعض شرطاً لازماً وعلامة واقعية للولي الصالح، وإنما الخطر في اعتبارها دليلاً على وصول صاحبها وحقانيتـه ويشتد الخطـر عندمـا يكون لهؤلاء مخالفـات صريحة لصراط العبوديـة الحقة الـذي هو الشريعة الغراء بطـرقها المشهورة. كما نقل عن بعض (العـرفاء) الذين كـانوا يفسرون الأحلام ويعـرفون ما في الضمائر وهم أصحـاب استخارات مصيبة للواقع، ولكنهم مخالفون لخط الثورة الإسـلامية التي أضحت حجة إلهية على كل العالمين في هـذا العصر وقد ظهـرت مظلوميتهـا فيما لا يدع مجالاً للشك عند ذوي الأفهام والأذهان السليمة، كيف لا وكل شياطين الأرض يعملون ليلاً

ونهاراً في سبيل إسقـاطها. فتفسير مثل هـذه الكرامـات ليس بالأمـر الشائك، وهي تعود في الغالب إلى جملـة من الرياضات الصعبة التي تقـوي من مرتبة تجرد النفس فترتفع إلى درجـة الإحاطـة الجزئيـة وإعمال بعض القوانين التي مـا زالت مجهولـة عندنا، أو تكون نتيجـة المواظبة على بعض الأذكار والأوراد التي تـؤثر في الوصول إلى مثل هذا الحال.

واكتشاف هـذا الأمر على حقيقته وتمييز الـرياضات الصحيحة من الفـاسدة ليس صعبـاً على أصحاب القلـوب السليمة والعقـول النيرة ممن استضاؤوا بنـور الوحي ونهلوا من منبع الولاية العذب. وسوف نشير إلى صفات العارف الحقيقي في الدرس السادس عشر إن شاء الله.

غـايـة الأمـر، أن نعلم أن هذه الخوارق للعـادات لا تمثل حقيقـة الـوصـول ويمكن أن تصـدر ممن لم يسلكوا طـريق العبوديـة الحقة. ولهذا سماهـا البعض بحجب النور لأنها أمـور شريفة بحـد ذاتها (نور) وقـد تصبح مانعـاً حقيقياً لمن يستغرق فيها ويقع في العجب والنظر إلى النفس من جرائها.

٤:١ حقيقة العبودية

العبودية كلمة تدل على عـلاقة بين العبد والمعبود، وهي الصراط الذي يعبره الإنسان للقاء الخالق:

﴿يـا أيها الإنســانُ إنّك كـادحٌ إلى ربِّكَ كَــدْحـاً فملاَقيه﴾.

فإذا انتقل الإنسان بـاختياره إلى مقام العبـد واتجه بإرادته نحـو المعبود فقط، فقد أدّى حقيقة العبودية. ولا يحصل هذا إلاّ إذا لاحظ أمرين أساسيين:

الأول: أن يكون الفعل الذي يؤديه العبـد أمراً صادراً من المعبود فقط، وبغير هذا الأمـر يكون الإنســان مشابهاً لإبليس اللعين في طغيـانه حتى ولـو لم يسجد لغير الله تعالى.

الثاني: أن يـؤدي الفعل خاضعـاً ممتثلاً مـذعناً، وبغير هـذه الصورة يكـون كالأجير أو المتاجر.

على أن العبـودية لا تحصـل فقط من خلال الالتـزام بـالأمـر الإلهي في مرتبـة الظاهر، بل ينبغي أن يتعدى هذا إلى ابعاد شؤون الإنسان كافة، فالبدن والعقل والقلب، كلهـا ينبغي أن تسافـر في هذا الطـريق مسلمة قيـادتها لسلطان الحق خاضعة في أفعالها لملك الرحمة. وإلى هذا المعنى يشير الدعاء المعروف:

«إلهي سجد لك سوادي وخيالي وبياضي».

٢:٤ طريق الوصول إلى العبودية

إن الله تقـدست أسماؤه قـد عين للإنسـان الفقير طـريق الـوصول إليـه عبر السفير الظاهر الـذي هو النبي والحجة الباطن الـذي هو العقل. فإذا أمره بأداء حق العبودية لا يعقل أن لا يحدد له جملة الأوامر والنواهي التي يحصل من خلال الالتزام بها سبيل الوصول.

كما يروى أن مـوسى عليه السـلام كان مسافـراً في إحدى البـوادي فمر على رجل يحمل صـوفـاً وحليبـاً وهــو يخاطب الله بلسـان التـوحيـد، قـائلاً: إلهي ومعبـودي، لقد أحضرت لك هـذا الصوف لأن الشتـاء وبرده قـادمان، وهـذا الحليب لك اليوم لكي لا تجوع! فذهل مـوسى وتعجب أشد التعجب، فأوحى الله تعالى له: يا موسى، ألا تدري لما أرسلتك؟ .

فـالقـدم الأولى التي يضعهـا السالك في طـريق العبـوديـة هي التعـرف على التكليف في كافة أبعاد وجوده.

ولا يظنن أن الله قد ترك له من شؤونه شيئاً يعمل فيه بما شاء. أما طرق معرفة التكليف فتبدأ بالرسول (ص) ثم الإمـام (ع) وفي عصر الغيبة هناك الولي الفقيه الجامع للشرائط. أمـا في القضايـا التي لا اجتهـاد فيهـا كالقضـايـا الأخلاقيـة

فالتحقيق فيها مطلوب حتى يصل الإنسان إلى المذهب الحق والطريقة المثلى. واعلم أن طريقة الإمام الخميني (قده) تعود إلى مدرسة الأئمة الأطهار (ع)، فهو قد مزج الفقه والاجتهاد والفلسفة والحكمة والعرفان في وعاء العبودية وقام لله متابعاً لسيرة جده الأمير وأبنائه المعصومين (ع).

اعلم أيها الأخ الإيماني أن الوصول إلى معرفة التكليف الإلهي يتطلب منك عزماً راسخاً واطلاعاً كافياً، وإياك والتساهل في هذا الأمر فإنه من المهلكات العظمى التي أَرْدَت جبلاً كثيراً من قبل.

ولا يبقى بعد هذا إلا النهوض في مقام العمل بحقيقة الإخلاص والتوجه التام إلى الحضور الإلهي. . والله بكل شيء محيط.

٣:٤ التكليف: عام وخاص

هناك نوعان من التكاليف الإلهية والوظائف الشرعية. **فالنوع الأول منها هو الذي يتوجه إلى كافة الناس بعموميته**: كأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والحج والجهاد في سبيل الله وإقامة الحكومة الاسلامية العادلة. والوصول إليه يكون عبر الرجوع إلى المجتهد الجامع للشرائط الذي يبين تفاصيله من خلال استنباط الأحكام من المصادر الأصيلة للشريعة الغراء. ومن لم يُقلد في هذا المجال أو يحصّل براءة الذمة (من خلال الاجتهاد أو الاحتياط) فهو ممن تنكّب عن صراط العبودية واعلن التمرد والعصيان على ساحة العزة والجلال.

أما النوع الثاني مما ينبغي أن نقف عنده قليلاً **فهو التكليف الخاص** الذي لا يخرج عن دائرة التكليف العام وإنما يتوجه إلى كل إنسان على حدة بحيث يتعيّن عليه جملة من المسؤوليات التي يجب أن يقوم بها وإلا كان مقصراً في أداء التكليف. **ويتحدد هذا التكليف** من قبل الإنسان نفسه، **وذلك بالنظر إلى الأمور التالية**:

أ ـ الظروف الزمانية والمكانية: فالعصر الذي يعيش فيه الإنسان إضافة إلى

المكـان يحدد للإنسـان جملة من المسـؤوليـات، كمن يعيش في بلد فيـه حكومـة جائرة، عليه أن يقوم عليها ويغيرها.

ب ـ **القدرات الـذاتية**: فلكل إنسـان قدرة وطـاقة محددة تتميـز عن الغير، كالقدرة على الجهاد أو التبليغ والارشـاد أو حمل اختصاص معين، مما يحتم عليه إعماله في المجتمع الإسلامي.

ج ـ **القـابليات والاستعدادات الـذاتية**: وهي غير القـدرات، لأنها تكـون كامنة، وإنما تبرز وتقـوى بعد القيام بأعمال خاصـة. كالسير في طلب العلم أو التدرب على القتال والوصول بهذه الملكات إلى درجات عالية.

وقد يكون من هذا أن على الإنسان أن يبذل جهداً عظيماً في سبيل الوصول إلى تحصيلها. واعلم أن قصر النظـر على القدرات الذاتية وعـدم السير باتجاه تنمية القابليات والاستعدادات الكـامنة مخالف لصراط الله القويم وموجب للخسران المبين.

ويسمى التكليف الخاص في ثقافة الاسلام بالبيعة للامام حيث يقوم المكلف بالاعلان عن استعـداده التام لبذل ما يمكنه لتحقيق المشروع العـام الذي يقوده الامام والـولي، وذلك من خلال اظهاره قـدراته ومهـاراته وقابليـاته عبر مشروع محدد ضمن دائرة التكاليف العامة.

فإنّ من عرف تكليفه الخاص وعمل عليه يدرك منزلة السابقين المقربين الذين يفوقون أهل اليمين رتبة وهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

خلاصة الدرس الرابع:

- البرنامج الواضح والثابت للـوصـول إلى الغاية المنشودة وتحقيق رضـى الله يحدده القرآن الكريــم بسلوك طريق العبودية.
- العبوديــة هي الانخلاع من الأنـانية وتركهــا، والإذعان بلسـان الفقر والفاقة لله سبحــانه وتعالى، ولا يتحقق هذا إلاّ بـالطاعــة المطلقة للمعبــود عبر أداء التكليف الإلهي، إضـافةً إلى فعل المستحبات.
- مـــا حكي عن الكمالات التي وصـــل إليهـــا البعض ممّن تنكّبــوا عن جــادة الحق تعــود في الغـــالب إلى جملـــة من الرياضـات الصـعبــة، أو تكون نتيجة المواظبة على بعض الأذكار والأوراد الخاصـة، وهـي لا تمثل حقيقة الوصـول وليست دليــلاً عليــه وإن كــانت من اللــوازم الحقيقيــة للرياضـات الصـحيحة ولذلك سميت بحجب النور.
- حقيقة العبــودية تتحصل بــأمرين: الأول: إلتــزام أبعاد الإنسـان الظاهرية والبــاطنية بالأمر الإلهي الصـادر من المعبود.

  الثاني: أن يؤدي العبد الفعل خاضـعاً ممتثلاً مذعناً.
- طريق الوصـول إلى العبوديــة يبدأ بمعرفة التكليف وذلك عبر الأدِلّاء الــذين هم الرَّســول (ص) ثم الأئمــة (ع) ثم الولي الفقيــه، وفي القضـايــا التي لا اجتهاد فيهــا مطلوب فيها التحقيق.
- بعــد معــرفــة التكليــف ينبغي النهــوض في مقــام العمل بحقيقة الإخلاص والتوجه التام إلى الحضـور الإلهي.
- التكليف نوعــان: عام يتــوجه إلى كــافة النــاس، وخاص يتوجه إلى كل إنسـان على حدة.

● التكليف الخاص يتحدد بالنظر إلى:

ـ الظروف الزمانية والمكانية.

ـ القدرات الذاتية.

ـ القابليات والاستعدادات الذاتية.

أسئلة الدرس الرابع:

١ ـ لماذا كان طريق العبودية هو السبيل الوحيد للوصول إلى الغاية؟

٢ ــ هل يمكن للسالك أن يصل إلى الهدف الحقيقي وهو يخالف التكليف الإلهي، ولماذا؟

٣ ــ كيف يمكن تمييز العرفاء الحقيقيين عن أولئك الذين تنكّبوا عن جادة الحق في حال كون الإثنين من أصحاب الكمالات؟

٤ ـ ما هو التكليف، وكيف يحدد الإنسان تكليفه الخاص؟

٥ ـ كيف نميّز التكليف الخاص من اتباع الهوى؟

٦ـ ما هي الموانع الاساسية التي تقف امام تحقق العبودية؟

٧ ـ ما هو العلاج لكل من هذه الموانع؟

٨ ـ كيف تفسّر تلك الخوارق التي تصدر عن البعض ممن يخالف صراط العبودية؟.



قال رسول الله (ص) « القرآن غنى لا فقر بعده ».

قال أمير المؤمنين ومولى المتقين عليه السلام :

«أما الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً ويحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم» . (نهج البلاغة ـ خطبة المتقين) .

لقد سطع نور القرآن على البشرية التي كانت غارقة في بحر المادية والشهوات وظلم الجهالات فأضاء على قلوب المؤمنين الواهين بحقائق التوحيد ومعارف الربوبية ليكون كل واحد منهم شمساً في سماء الفضيلة ونجماً في رحاب المعرفة .

وكان القلب الأمين(١) وكانت الأذن الواعية(٢) أجمل مرائي آياته وأعلى مظاهر تجلياته حتى صدق في حقهم الكلام :

«نحن القرآن الناطق» .

---

(١) الرسول الأكرم (ص) .
(٢) أمير المؤمنين (ع) .

فبهم ظهرت مدرسة القرآن: «مدرسة تربية الأولياء والكاملين» وأضاءت مناراته ومصابيحه لكل الحيارى والسالكين ليكون «الزاد الأكبر» في رحلة السير التي تنتهي «بلقاء الله تعالى».

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ (الانشقاق ـ ٦).

لم يكن هذا الكتاب الإلهي يوماً مجرد كتاب للتعاويذ والتبرّك فهو المربي الأكبر والمعلم الأعظم.

فكيف صار الكتاب هدى للمؤمنين، ومنتجعاً للسالكين؟

وهل بإمكاننا أن نسلك سبيلهم ونهتدي بهداهم فيصير القرآن معلمنا ومربينا الأعظم؟

أيمكن أن يخرج القرآن من طوق مجالس الترحيم والفواتح فيصبح منارة ترشد سفن حياتنا؟

قال الإمام الخميني مؤسس جمهورية الإسلام (رض):

«... وهذا الكتاب الشريف الكتاب الوحيد في السلوك إلى الله والكتاب الأحدي في تهذيب النفوس والآداب والسنن الإلهية وأعظم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق...» (الآداب المعنوية، ص٢٣٤).

وقال الله تبارك وتعالى:

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (المائدة ١٥ ـ ١٦).

فتعـال معاً نسمع الإمـام العـزيز يخبرنـا كيف صـار القرآن مـربيـاً للأوليـاء الصالحين :

قال الأستاذ الأعظم روح الله الموسوي «قده» :

«إن الله تبارك وتعالى لسعة رحمته إلى عباده أنزل هذا الكتاب الشريف من مقـام قربه وقدسـه، وتنزل به حسب تنـاسب العـوالم حتى وصل إلى هـذا العـالم الظلماني وسجن الطبيعة، وصار على كسوة الألفاظ وصـورة الحروف لاستخلاص المسجـونين في سجن الـدنيـا المظلم وخلاص المغلـولين بأغـلال الآمـال والأماني، وإيصالهم من حضيض النفس والضعف والحيـوانية إلى أوج الكمال والقـوة الإنسانيـة، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين، بل الوصول الى مقام القـرب وحصول مـرتبة لقـاء الله التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطلبهم»

(الآداب المعنوية، ص ٣٢٣).

ونحن نسمع هـذه الكلمات التي اشتقت من نـور الوحي، هل يبقى لنـا أي عذر في البحث عن المرشـد والهادي؟ ترانا نلتمس نوراً من هنـا ونوراً من هناك، وقد تركنا كتاب الله وراء ظهورنا!؟ وهو القائل بأنه الكفيل بهدايتنا وإخراجنا من الظلمات إلى النور وسبل السلام والنجاة.

والسبب واضح جلي، فالقرآن الكـريم ليس كتاباً منزلاً للمطـالعة أو القراءة الظاهرية بحيث إذا قمنا بـذلك حصل المطلوب منه، بل هناك جملة من الآداب المعنـوية التي ينبغي للقـارىء العـزيز أن يعمـل بها، حتى تتحقق فيه أهـداف القرآن وتشع على قلبـه أنوار الهداية الكبرى مـن معدن الآيات وجـوهر الكلمات الإلهية.

يقول الإمام القائد (قده):

«.... وبالجملة فالمطلوب من قراءة القرآن هو انتقاش صورته في القلوب، وتأثير أوامره ونواهيه ودعواته، وهذا المطلوب لن يحصل إلا إذا لحظت آداب القرآن فيه» (الأربعون حديثاً، ص ٤٢٤).

وهو (قدس سره الشريف) يعود مرة ثانية ليؤكد على هذه الآداب على طريقة أهل المعرفة وأهل الذكر الحكيم، ويذكر جملة من الآداب المعنوية التي استفادها من معدن الحكمة ومشكاة الوحي.

٥:١ التعظيم:

فأول هذه الآداب: التعظيم. وهو أن يلحظ القارىء للقرآن في كل سوره وآياته عظمة المتكلم به ومنزله. حيث أن هذا الكتاب العظيم قد جمع كل جوانب العظمة والقدسية، فمنزله وحامله وشارحه ومبينه ووقت تنزيله وكيفية نزوله كل هذه الأمور مستجمعة لأعلى مقاصد العظمة.

فمنزله هو الله تعالى الجامع لكل الصفات الجمالية والجلالية المطلقة.

وحامله هو جبرائيل رئيس الملائكة...

وشارحه ومبيّنه هو الرسول الأعظم وخلفاؤه الأئمة عليهم أفضل الصلوات والسلام.

ووقت تنزيله ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر...

واعلم أن رعاية هذا الأدب المعنوي له شأن عظيم ودور كبير في حصول هداية القرآن ونزول معانيه في القلوب، وذلك لأن القرآن يمكن أن يصبح سبباً لشقاء البعض وضلالتهم بقوله تعالى: **﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾** (البقرة/ ٢٦).

ومـا ذلك إلا لأنهم لم يـراعـوا هذا الأدب العظيم . ولنـذكـر مثـالاً على ذلك تحصل منه الفائدة المرجوة :

فقـد يحدث أحيـانـاً أن نقرأ بعض الأحـاديث الشريفـة الصـادرة عن أحـد المعصومين عليهم أفضل الصلاة والتسليم ، ونقرأ أيضاً بعض الكلمات المنسوبة إلى أحد الحكماء أو العلماء ، وقد يبـدو لنا للوهلة الأولى أن كـلام هذا الأخير هو أكثر دقة أو عمقاً من كلام المعصوم ، وهنا يأتي دور مسألة التعظيم ، فإن لم يدرك عظمة الرسول الأكرم (ص) والأئمة الهداة (ع) سوف يدع روايتهم جانباً ويأخذ بكلام الحكماء ، وسوف يكون هذا الأمر سبباً لبعـده وحرمانه من معرفة الحقيقة ، وأما الذي يضع نصب عينيه عظمة المعصـوم وعلو قدره فسوف تنفتح عليه جملة من الحقائق العظيمـة ، وإذا بكلماتهم المقدسة تظهـر بالصورة المتكـاملة ، وكلما سـار وغـاص في هـذا الأدب المعنوي (وهـو التعظيم) طـوى المراتب النـورانيـة للمعصومين وأدرك عظمة الكلام وغاص في درجاته النورانية .

واعلم أن عدم رعـاية هذا الأدب المهم يكون سببـاً للخسران المبين ، ويؤدي بالتالي إلى هجر القرآن ، وهو ما كان يشكو منه الرسول الأكرم (ص) :

﴿وقال الـرسول يا رب إن قومي اتخذوا هـذا القرآن مهجوراً﴾ (الفرقان ـ ٣٠) .

٢:٥ فـهم مقاصد القرآن:

ليس القرآن كتـاباً فلسفياً ليبحث في العلة والمعلول والقـوة والفعل والإمكان والوجوب ، ولا كتـاباً فيزيائيـاً أو كيميائياً أو فلكياً حتى يـدرس أوضاع الذرات وحركاتها والأجـرام السماوية ومساراتها ، وليس هو كتاب اللغة والنحـو والبلاغة ليكون نصاً أدبيـاً كالمعلقات ، بل هو كتاب الهداية كما صرّح هـو بنفسه ليخرج النـاس من الظلمات إلى النور ، ويـوجد الـرابطة القـوية بين الإنسـان وخالقـه ، ويشفي الناس من أمراض حب النفس واتباع الهوى والتعلق بالدنيا .

وكل ما جاء فيه على نسق الفلسفة أو الفيزياء أو الفلك فإنما هو لغاية واحدة ومقصد أسمى وهو مـا ذكرناه، فلا تبادر الى استكشاف القوانين الفيـزيائية من القـرآن الكريم وتقضي عمـرك كله وأنت تبحث عن الكـوكب الحادي عشر بين آياته وكلماته، فإن في ذلك خسراناً مبيناً وانحرافاً عن مقاصد القرآن وأهدافه.

وفي القرآن الشريف جملـة من المقاصد التي تـدخل مرة ضمن الغايـة، ومرة ضمن الطريق والوسيلة، ولمعرفة هذه الأمور أثر بالغ في تحقيق الفائدة من القرآن وقراءته.

الأول: معرفة الله تعالى

«فأحد مقاصده المهمة الدعوة إلى معـرفة الله وبيان المعارف الإلهية من الشؤون الذاتية والأسمائية والصفاتية والأفعالية وأكثرها في هذا المقصود هو توحيد الذات والأسماء والأفعال، وليعلم أن المعـارف من معرفـة الذات إلى معـرفة الأفعـال قد ذكـرت في هـذا الكتـاب الجامع الإلهي على نحـو تـدركـه كل طبقـة على قـدر استعدادها» (الآداب المعنوية، ص ٣٢٤).

فكيف تقوى على حمل هذه الآية:

﴿سبحـــان الله عما يصفـــون إلا عبـــاد الله المخلصين﴾.

والله تعـالى ينزّه نفسـه عن كل وصف إلا وصف المخلصين، ويعتبر أن هـذا الوصف الذي هو فرع المعرفة ليس صحيحاً إلا الذي يصدر عن المخلصين، ثم أنت تقول «وكلنا يعرف الله»، أو أن هذه المعرفـة ليست إلا معرفة العوام وهذا ما يريده الله منا!!

ثـم إذا وقفت قليلاً عند آية:

﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ (الحديد-٢).

فهل عرفت أن هذه الآية نزلت للمتعمقين في آخر الزمان؟

فأحد مقاصد القرآن وأعظمها معرفة الله التي هي غاية الخلق بقوله تعالى :

«كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الكون لكي أعرف» (حديث قدسي).

الثاني: تهذيب النفوس

«ومن مقاصده ومطالبه الأُخَـرْ الدعوة إلى تهذيب النفوس وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة، وتحصيل السعادة، وبـالجملة «كيفية السير والسلوك إلى الله»». (الآداب المعنوية، ص ٣٢٥).

فبعد أحد عشر قسماً عظيماً وجليلاً يقول تعالىٰ :

﴿قـد أفلح من زكّـاهـا وقد خـاب من دسّـاهـا﴾ (الشمس-١٠).

فـآيـات الغيب وأحـوال الصـالحين ومـراتب المخلصين ودرجـات المقـرّبين والجهاد بأقسامه والعلاقـات الاجتماعية وآثار الأعمال من الثواب والعقاب، كل هذه لتهذيب النفوس وربطها ببارئها وربها الودود الغفور.

الثالث: قصص الأنبياء

«ومن مقـاصـد هـذه الصحيفة الإلهيـة قصص الأنبيـاء والأوليـاء والحكماء، وكيفية تـربية الحق إياهم وتـربيتهم الخلق. ولأجل هذه النكتـة كررت القصص القرآنية كقصـة آدم وموسى وإبراهيم وسائر الأنبياء. فليس هـذا الكتاب كتاب قصـة وتاريخ، بل هـو كتاب السير والسلـوك إلى الله وكتاب المعـارف والمواعظ والحكم». (الآداب، ص ٣٢٥).

ففي قصة النبـي موسى مع الخضر (ع) مـواعظ بليغة وحكم جليلـة، تربط المخلوق بالخالق، وتنظم آداب السلوك بين العبـد والمولى، فالخضر عليه السلام

يراعي في خطابه كامل الأدب مع الله، فهو إذا تحدث عن خرق السفينة قال:

﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها﴾ (الكهف/ ٧٩).

فلأن العيب لا يتطرق إلى الذات الإلهية، جاء الفعل بصيغة المفرد «أعيبها أنا»، و إذا تحدث عن القتل قال:

﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكواة وأقرب رحماً﴾ (الكهف ـ ٨٠، ٨١).

لان القتل يمكن ان يكون مرة رحمة ومرة شراً ولهذا جاء الفعل بصيغة المثنى. و إذا تحدث عن استخراج الكنز قال:

﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربّك﴾ (الكهف ـ ٨٢).

لأن التوجه إلى الخير و إرادة الكمال والنفع يستند إلى الذات الإلهية المقدسة، ولهذا نسبه الخضر إلى الله تعالى وجاء به بصيغة الغائب «أراد».

ففي خطاب الأنبياء رعاية لهذا الأدب العظيم الذي ينطق عن أعلى معارف التوحيد الأفعالي، ولهذا المقال مقام آخر إن شاء الله تعالى.

وكذلك إذا تحدث النبي ابراهيم (ص) قال:

﴿الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * و إذا مرضت فهو يشفين﴾

(الشعراء ـ ٧٨، ٧٩، ٨٠).

فنسب عليه الصلاة والسلام كل الخيرات إلى الله تعالى، حتى إذا جاء على ذكر المرض قال: مرضت «أنا»، لأن الشر لا طريق له إلى الله عز وجل.

وهكذا ترى في قصص الأنبياء العظام من المعـارف ما يأخذ بمجامع القلوب ويدمع العيون فلا تبقى للنفس باقية .

يا رب، يا من هو أرأف بي من أمي وأبي .

الرابع : أحوال الكفّار والجاحدين

ومن مطالب هـذه الصحيفة النورانيـة أحوال الكفار والجاحـدين والمخالفين للحق والحقيقة والمعاندين للأنبياء والأولياء عليهم السلام، وبيان كيفية عواقب أمورهم وكيفيـة بوارهم وهـلاكهم، كقضايـا فرعـون وقارون ونمـرود وأصحاب الفيل وغيرهم .

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«واعلموا أنكم لن تعرفوا الـرشد حتى تعرفوا الذي تركه ولن تأخذوا ميثـاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضـه ولن تمسكـوا بـه حتى تعرفـوا الـذي نبـذه»

(الخطبة ١٤٧، نهج البلاغة) .

ففي قصة قارون اشـارات عظيمة للتوحيد الأفعـالي ودرس عظيم لنا جميعاً، وليس فقط للأغنيـاء الذين بلغـوا بثرواتهم مبلغ قارون، فإن مجرد حيـازة الأموال الطائلـة ليس سبباً للضلالة بحيـث يصبح كل غني من الضالين، وليس سبب هلاك قارون هو أنه كان يمتلك الأموال العظيمة التي تحدث القرآن عنها بقوله :

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنـوأ بالعصبة أولي القوة إذ قـال لـه قومـه لا تفـرح إن الله لا يحب الفـرحين﴾

(القصص/ ٧٦ آية) .

وإنما اعتقاده الذي كان يجعله في درجة المستكبرين بقوله :

﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ (القصص/ ٧٨).

فسبب الهلاك هو «الاستكبار». وكم يحدث فينا هذا الأمر في علومنا وأملاكنا مهما صغرت عندما نعتقد اننا نحن الذين حصلنا عليها وبقوتنا وعلمنا. فقارون يمكن أن يكون موجوداً في كل واحد منا دون أن يمتلك الكنوز العظيمة. وهذا هو سبب هلاكه.

وقد يحدث أحياناً ان يكون الإنسان جباراً (متجبراً) كفرعون دون أن يكون له شعب مصر أو بلاد مصر وكنوزها، كما يروى في حياة رسول الله (ص) عندما كان يمر هو وأصحابه في أحد أزقة مكة، وكانت هناك عجوز ضعيفة تكنس الطريق وتثير الغبار من حولها، فتقدم أحد أصحاب النبي الأكرم (ص) وطلب منها التوقف هنيهة ريثما يمر الرسول وأصحابه، فأبت أن تفعل ذلك، عندها قال رسول الله (ص):

«دعوها فإنها جبارة».

وهي العجوز الضعيفة التي لا تملك شيئاً. ينبغي إذن أن يفهم القارىء للقرآن من قصص الأنبياء ان هذا التكرار وهذا السرد الدائم ليس لمجرد زيادة معلوماتنا التاريخية ومطالعاتنا العامة، وإنما في كل قصة موعظة، بل مواعظ عظيمة توقظ النائمين وتحيي الموتى.

وكذلك إذا نظرت في الصحيفة الإلهية فستجدها مليئة بقصص بني اسرائيل وأحوالهم، وليس هذا لمجرد تذكيرهم والقاء الحجة عليهم، وإنما هناك درس أعظم وموعظة أبلغ كما نقل عن رسول الله (ص) قوله:

«إن أمتي ستتبعهم حذو النعل للنعل».

ألا ترانا أننا قتلنا أبناء الأنبياء كما فعل بنو اسرائيل: ألم نقتل الحسين عليه السلام وغيّبنا الولي الأعظم وعاندنا الحق بعد أن رأيناه و. . .

الخامس: بيان ظاهر الشريعة

«ومن مطالب القرآن الشريف بيان قوانين ظاهر الشريعة والآداب والسنن الإلهية» (الآداب المعنوية، ص ٣٢٨).

حيث ان الشريعة الإلهية هي الطريق للوصول الى الحقيقة.

السادس: أحوال المعاد

«ومن مطالب القرآن الشريف: أحوال المعاد والبراهين لاثباته، وكيفية العذاب والجزاء والعقاب وتفاصيل الجنة والنار والتعذيب والتنعيم، وقد ذكرت في هذا القسم حالات أهل السعادة ودرجاتهم من أهل المعرفة والمقربين ومن أهل الرياضة والسالكين ومن أهل العبادة والناسكين» (الآداب، ص ٣٢٩).

وفي هذا الباب من المواعظ ما يأخذ بمجامع القلوب ويحيّر الألباب، فإنه كلما ذكرت مرتبة من الجنة ذكر معها أصحابها وأحوالهم وصفاتهم، وهكذا بالنسبة للنار وأهلها.

﴿قد عَلِمَ كل أناس مشربهم﴾.

وليس عجيباً أن يكون هذا العدد الكبير من آيات البعث والنشور والحياة والآخرة، أليس الموت خير واعظ؟

فإذا تأملت جيداً وجدت ان كل مقصد من مقاصد القرآن يأخذ بيد الإنسان نحو المقصد الأسمى والغاية الكبرى، وبالتفكّر فيها تحصل حياة القلوب وراحة النفوس.

﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾.

١:٦ كيفية الاستفادة

قد ذكرنا فيما مضى جملة من مقاصد هذا السفر النوراني الذي به حياة كل قلب أوّاب، وبقيت بعض الآداب المعنوية التي ينبغي للقارىء والسالك أن

يراعيها، منها: كيفية الاستفادة من هذا الكتاب الإلهي لأجل الوصول به إلى المقاصد المذكورة.

قال الإمام الخميني (قده):

«ولا بد لك أن تلفت النظر إلى مطلب مهم يكشف لك بالتوجه إليه طريق الاستفادة من الكتاب الشريف، وتنفتح على قلبك أبواب المعارف والحكم، وهو أن يكون نظرك إلى الكتاب الشريف الإلهي نظر التعليم وتراه كتاب التعليم والإفادة وترى نفسك مواظبة على التعلم والاستفادة»

(الآداب المعنوية، ص ٣٣٢).

ولا يحصل ذلك إلا إذا نظر إليه نظر المتعلّم في كل قصة من قصصه، بل في كل آية من آياته، وبحث عن جهة الاهتداء الى عالم الغيب وطرق الهداية الى سبيل السعادة وسلوك طريق المعارف الإلهية، وأكثر الذين يقرأون القرآن لسنوات طويلة ولا يوجب ذلك حياة قلوبهم، إنما لأنهم لم ينظروا بهذا النظر، ولم يراعوا هذا الشرط الأصيل، وقاموا بحمل معارفهم واعتقاداتهم السابقة على آياته، ولم يلتمسوا فيه جهات التربية والتعليم وتزكية النفوس.

قال الإمام الخميني (قده):

فأي خسران أعظم من أن نقرأ الكتاب الإلهي ثلاثين أو أربعين سنة ونراجع التفاسير ونحرّم مقاصده «ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».

٢:٦ رفع الحجب بين المستفيد والقرآن:

والقارىء العزيز ما أن يقبل على الكتاب الشافي يريد به دواءه، حتى يجد أن

هناك جملة من الحجب والموانع التي تقف بينه وبين الاستفادة من القرآن الكريم، وتتملّكه الحيرة فهو من جانب يقرأ: ﴿**يهدي به من اتبع رضوانه سبل السلام**﴾، ولكنه يجد نفسه تعيش الأسقام والآلام وحسرات الدهر وزفرات الغموم، وإذا بالمشاكل المستعصية تحيط به من كل جانب.

وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿**ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر**﴾

(القمر ـ ١٧).

ولكنه مع ذلك يجد آياته عسيرة الفهم ثقيلة على ميزان عقله، فيدرك عندئذ وبألطاف خفية أن هناك حجباً وموانع تحول بينه وبين تحقق هذه المطالب العظيمة، ويقف الإمام القائد منتظراً ليأخذ بأيدي الحيارى الى سبل الهداية، ويفتح لهم من أبواب المعارف ما يعرفهم على تلك الحجب التي بعضها أغلظ وأشد من بعض، بقوله (قده):

> **«فإذا علمت الآن عظمة كتاب الله من جميع الجهات المقتضية للعظمة، وانفتح طريق الاستفادة منه، فاللازم على المتعلم والمستفيد من كتاب الله أن يجري أدباً آخر من الآداب المهمة حتى تحصل الاستفادة، وهو رفع موانع الاستفادة وازالتها، وهذه الموانع كثيرة نشير إلى بعضها»**

(الآداب المعنوية، ص ٣٣٩).

١ ـ من الحجب العظيمة، **حجاب رؤية النفس**: حيث يرى المتعلم نفسه بواسطة هذا الحجاب مستغنية أو غير محتاجة للاستفادة، وهذا من المكائد المهمة للشيطان الرجيم الذي يزين للإنسان دائماً، ويظهره بمظهر الكامل المستغني والواصل المستعلي، حتى يبقى أسير الأوهام والأحلام الباطلة. وهو يدخل إلى كل فئة من الناس ويزيّن لها بما يوافقها، فإذا رأى شخصاً مهتماً بعلوم

العربيـة أو تجويد القـرآن وقراءاتـه، قال له بأن عليـك الآن أن تتفوق على ذلك القارىء وهكذا حتى يقضي بقية حياته معلماً مستغنيـاً، وهو إذ يتلو القرآن يومياً لا تستوقفه الآية الشريفة:

﴿وقل رب زدني علماً﴾ (طه ـ ١٦٤)

لأكمل الخلق وأعرفهم على الاطلاق.

ثم انه لا يتفكّـر في القصة العظيمـة التي حصلت بين الخضر وموسى عليهما السلام حين قال له النبي موسى (ع):

﴿هل اتبعك على أن تعلّمني ممـا علّمت رشـداً﴾
(الكهف ـ ٦٦)

مع ما له من المقام الشامخ في العلم والمعرفة.

فينبغي للقارىء الكريم أن يمزق هذا الحجاب الغليظ الذي يقف بينه وبين أنوار الهداية القرآنية التي هي من أجلى الأنوار وأشدها تأثيراً.

٢ ـ قال تعالى:

﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ (الزخرف/ ٢٢).

فمن الحجب المانعـة من الاستفـادة، **حجاب الآراء الفـاسدة والمسـالك والمذاهب الباطلة**. وهذا يعود في أغلب الأحيان الى التبعية والتقليد من دون نظر وتفكر. فإذا رسخ في قلوبنا اعتقاد بمجرد الاستماع من الأب أو الأم أو من بعض جهلة أهل المنبر، تكون هذه العقيدة حاجبة بيننا وبين الآيات الشريفة الإلهية.

فمثلاً وردت الآيـات الكثيرة الراجعة إلى لقـاء الله ومعرفته، ولكن بمجـرد ما نشأت في هـذا المجال عقيـدة بين الناس تقول أن معـرفة الله غير ممكنـة لأغلب الناس وأن هذه المعرفة مقتصرة على الأنبيـاء والكاملين من الأولياء، صارت هذه

العقيدة حاجبة لأكثرنا عن التوجه إلى هذا المطلب العظيم الذي هو غاية بعثة الأنبياء وأسمى مقاصد الأولياء وهدف خلقة الناس. فإذا بالقرآن الكريم يبعد عن مقاصده، وإذا بالآيات العظيمة التي تشير إلى هذا المطلب تفسر على أساس الفهم العامي حتى صار ذلك سبباً لشكاية الرسول الأكرم (ص):

﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾.

أترى أننا إذا جلّدنا القرآن جلداً نظيفاً وقيّماً، وعند قراءته أو الاستخارة به قبّلناه ووضعناه على أعيننا، ما اتخذناه مهجوراً؟! فأي هجران أعظم من هذا؟ وقد نزل القرآن ليكون المربي الأعظم ومنهاج حياة البشرية والنجاة لكل الأمم والشعوب الأرضية.

٣ ـ ومن الحجب المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النورانية **الاعتقاد بأنه ليس لأحد حق الاستفادة من القرآن الشريف إلا بما كتبه المفسرون أو فهموه**. وقد اشتبه على الناس هذا الأمر فخلطوا ما بين التدبر والتفكر اللذين أمر الله تعالى بهما وحث عليهما وجعلهما غاية لإنزال القرآن، حيث قال تعالى:

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾، (صٓ ـ ٢٩)،

وبين التفسير بالرأي الممنوع. قال الإمام العزيز (قده):

«وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع وجوه الاستفادة واتخذوه مهجوراً بالكلية في حين أن الاستفادات الأخلاقية والايمانية والعرفانية لا ربط لها بالتفسير»
(الآداب المعنوية، ص ٣٤٣).

وفي مكان آخر يشير الإمام العزيز الى هذا المطلب الشريف، ويفرّق ما بين

التفسير بالرأي الممنوع كما جاء في الحديث الشريف عن رسول الله (ص) :

« . . . من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعداً من النار»،

وبين التدبر والتفكير المطلوب . قال (قده) :

«واعلم أن التدبر في الآيات الإلهية المحكمة وفهم معارف وحكم التوحيد والاستفادة منها هو غير التفسير بالرأي الذي نهي عنه أصحاب الرأي والأهواء الفاسدة الذين لم يتمسكوا بأهل بيت الوحي الذين اختصوا بمخاطبة الكلام الالهي»
(الأربعون حديثاً، ص ٤٢٢).

ومما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام :

«إن هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدجى، فليجل جال ببصره ويفتح للضياء نظره، فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور»، (الكافي، ٢٨).

وقال أمير المؤمنين (ع) :

«وتعلّموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص»
(نهج البلاغة ـ الخطبة ١١٠).

والتدبر من الاستدبار وهو استكشاف خلفية الشيء، والتدبر في القرآن الكريم بالتفكر في معاني الآيات وخلفياتها وأبعادها، وعدم الوقوف عند ظاهرها.

قال تعالى :

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾

(محمد ـ ٢٤).

٤ ـ قال عز من قائل :

﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾

(المطففين ـ ١٤).

فمن الحجب المانعة من فهم القرآن الشريف، **حجاب المعاصي والمنكرات**، فإن للمعاصي آثاراً ظلمانية تكون سبباً في كدورة القلب وعدم صفائه، مما يحجبه عن الاستفادة من هداية القرآن الكريم. فحيث حلت الظلمة والكدورة خرج النور والهداية. قال الإمام الخميني (قده) :

«وحيث ان القلب في هذه الحالة يقع بالتدريج تحت سلطة الشيطان، ويكون المتصرِّف في مملكة الروح إبليس، فيقع السمع والبصر وسائر القوى أيضاً فيتصرف ذاك الخبيث ويفسد السمع بالكلية عن المعارف والمواعظ الالهية»

(الآداب المعنوية للصلاة، ص ٣٤٥).

٥ ـ قال تعالى :

﴿... ولكن متعناهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾ (الفرقان ـ ١٨).

ومن الحجب الغليظة التي هي ستر غليظ بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه، **حجاب حب الدنيا**، فإنه كلما ازدادت العلاقة بيننا وبين الدنيا ازداد حجاب القلب وساتره ضخامة حتى تصبح هي المسيطرة، ويتسلط سلطان حب الجاه والمنصب عليه بحيث يطفىء نور الله بالكلية، قال الإمام الخميني

شارحاً قول الله تعالى:

﴿إنـه لقرآن كـريم في كتـاب مكنون لا يمسـه الا المطهرون﴾ «فكما أن غير المطهر الظاهري ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسه، كذلك ممنوع عن معارفه ومواعظه وباطنه وسره من كان قلبه متلوثاً بأرجاس التعلقات الدنيوية».

وقال تعالى:

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾

(البقرة ـ ٢).

٣:٦ حضور القلب:

ومن آداب قراءة القـرآن الكريم: حضور القلب والخشوع والخضـوع، وهذا شرط عام في كل العبادات الذي به تتحقق صورها النورانية وتصبح مقبولة:

«لا يقبل منك إلا ما أقبلت عليه بقلبك».

قال الصادق عليه السلام:

«من قرأ القرآن ولم يخضع لله ولم يرق قلبه ولا ينشىء حزناً ووجـلاً في سره فقد استهان بعظمـة شأن الله تعالى وخسر خسراناً مبيناً»

(مصباح الشريعة، ص ٢٨).

٤:٦ التفكّر:

ومن الآداب المهمة التي أشير إليهـا اجمالاً، التفكّر، والمقصـود من التفكر أن يتحسس من الآيات الشريفة المقصد والمقصود، قال تعالى:

﴿وأنـزلنا إليك الـذكر لتبيّن للنـاس ما نـزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ (النحل ـ ٤٤).

وحول هذا يحدثنا الامام العارف الخميني (رض):

«وفي هذه الآية مدح عظيم للتفكر، لأن غاية إنزال الكتاب السماوي العظيم قد جعلت في احتمال التفكر» (الآداب المعنوية، ص ٣٥٠).

وقال تعالى:

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾

(الأعراف ـ ١٧٦).

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«لا خير في قراءة لا تفكر فيها»

(الأربعون حديثاً، ٤٢٢).

وقال رسول الله (ص):

«لا يعذب الله قلباً وعى القرآن» (البحار، ج ٩٢).

٦:٥ التطبيق:

قال الإمام الخميني (قده):

«ومن الآداب المهمة لقراءة القرآن التي تنيل الإنسان النتائج الكثيرة والاستفادات غير المعدودة هو التطبيق، وكيفيته انه حينما يتفكر في كل آية من الآيات الشريفة يطبق مفادها على حاله ويشفي أمراضه بها. مثلاً في قصة آدم يتفكر ان مطرودية الشيطان عن جانب القدس مع تلك السجدات الطويلة والعبادات الكثيرة لماذا؟ ويستفاد ان مبدأ عدم سجود ابليس هو رؤية النفس والعجب الذي صار سبباً لحب النفس والاستكبار مما جعله مطروداً عن ساحة القدس، ونحن قد خطبنا الشيطان من أول عمرنا واتصفنا بأوصافه الخبيثة ولم نتفكر في ان ما هو سبب المطرودية، اذا كان موجوداً في أي شخص فسوف يكون مطروداً أيضاً!!»

(الآداب المعنوية، ص ٣٥٣).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«من قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى، فيقول يا رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . . فيؤمر به الى النار»

(وسائل الشيعة، ج ٤).

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم»

(نهج البلاغة).

٦:٦ الإخلاص:

ومن الآداب المهمة والتي يتوقف عليها تحصيل الفائدة وبها تتم السعادة :

الإخلاص، وهو أيضاً من الشروط الأساسية في كل عمل وطاعة، وهو عبارة عن تخليص النية عما سوى الله تعالى والتوجه التام اليه، وفي هذا السفر الروحاني ينبغي للقارىء ان يلحظ في كل آية وكل كلمة المتكلم الحقيقي الذي أنزل القرآن لشفاء أمراض العائلة البشرية، وان تحصيل هذا الشفاء من المعجون الإلهي لا يتم إلا إذا كان التوجه كاملاً الى الطبيب الأعظم.

قال الباقر عليه السلام :

«قُرّاء القرآن ثلاثة : رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدر به الملوك واستطال به على الناس. ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده وأقامه اقامة القدح فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن. ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على قلبه فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء وبأولئك يديل الله من الأعداء وبأولئك ينزل الله الغيث من السماء فوالله لهؤلاء في قرّاء القرآن أعز من الكبريت الأحمر» (الكافي، ج ٢).

٧:٦ التمسك بالثقل الثاني:

الذين هم القرآن الناطق، ومنارات آياته، وتجليات معارفه، وسوف يكون الحديث عنهم فيما بعد إن شاء الله تعالى. وبالجملة، فاعلم أن هذا القرآن فيه المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، وقال تعالى:

﴿فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾

(الأنبياء ـ ٧).

فالأئمة الهداة خلفاء النبي الخاتم عليه أفضل الصلاة والتسليم، قد جعلوا أبواب مدينة علم الرسول التي هي ترجمان وحي القرآن الكريم، ولا يمكن أن تحصل الاستفادة من هذا الكتاب الإلهي العظيم دون الرجوع اليهم والولوج من أبوابهم، أبواب الرحمة الإلهية الكبرى..

عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«قال رسول الله (ص): من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ خمسين آية كتب من الذاكرين ومن قرأ مئة آية كتب من القانتين ومن قرأ مائتي آية كتب من الخاشعين ومن قرأ ثلاثمائة آية كتب من الفائزين ومن قرأ خمسمائة آية كتب من المجتهدين ومن قرأ ألف آية كتب له قنطار من بر القنطار خمسة عشر الف (خمسون الف) مثقال من ذهب والمثقال أربعة وعشرون قيراطاً أصغرها مثل جبل أحد وأكبرها ما بين السماء والأرض»

(الأربعون حديثاً، ص ٤٢٢).

وقال الصادق عليه السلام:

«القرآن عهـد الله إلى خلقه ينبغي للمـرء المسلم أن ينظـر في عهـده وأن يقرأ منـه كل يـوم خمسين آيـة»
(الأربعون حديثاً، ٤٢٢).

وفي الكافي الشريف بإسناده الى باقر العلوم عليه السلام:

«قال رسـول الله (ص): أنا أول وافـد على العزيـز الجبـار يوم القيـامة وكتـابـه وأهل بيتي ثم أمتي ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وأهل بيتي».

يقول الإمام الخميني (قده):

«فإذا التفت مسلمـو العالم الى مراد الأنبيـاء عليهم السـلام الذي جـاءت عصـارتـه في آخر صنـاعـة الإنسان وتهذيبه وهو القـرآن الكريم، هذا الكتاب الهادي الـــذي سطـع من مبـــدء النـــور ﴿الله نورالسماوات والأرض﴾ على مشكـاة القلب النوراني لخاتـم الـرسل صلى الله عليـــه وآلـه وسلم ليخلص قلـوب الناس من حجب الظلمـة الى النور وينـوّر العالم بـالنور الأعلى، فإذا التفتـوا إلى ذلك لن يقعوا أبداً في أسارة الشياطين وأبنائهم».

خلاصة الدرسين الخامس والسادس:

● قال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتّبع رضـوانـه سبل السـلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

● حتى يتحقق مصداق هذه الآية ويصبح القرآن هادياً لنا وسبيلاً للوصول إلى دار السـلام حيث السعادة المطلقة، ينبغي رعاية سلسلة من الآداب المعنـوية في قراءة القرآن الكريم.

● أول الآداب، التعظيم: وهو أن يلحظ القارىء عظمة منزل القـرآن (الله) وحامله (جبرائيل) والمتكلم بـه وشارحه (الرسـول «ص») ووقت تنزيله (ليلة القـدر)، لما في هذا الأدب من أثر عظيم في حصـول الهداية ونـزول معاني القرآن في القلوب.

● الثاني، فهم مقاصد القرآن الكريم وأهمها:

- معرفة الله.
- السير والسلوك إلى الله.
- قصص الأوليـاء والأنبيـاء وكيفية تـربيـة الحق لهم وكيفية تربيتهم الخلق.
- أحوال الكفار والجاحدين.
- بيان ظاهر الشريعة.
- أحوال المعاد.
- احتجاجات الحق على الناس.

● الثالث، معرفة كيفية الاستفـادة من القرآن وهو أن ينظر إليه على أنه كتاب تعلم وإفادة.

● الرابع، رفع الحجب والموانع، ومنها:

- حجاب رؤية النفس.

- حجاب الآراء الفاسدة والمذاهب الباطلة.
- حجاب الاعتقاد باقتصار الاستفادة على ما كتبه المفسرون.
- حجاب الذنوب والمعاصي والمنكرات.
- حجاب حب الدنيا.

● الخامس: حضور القلب والخشوع والخضوع.

● السادس، التفكر والتدبر في آيات القرآن.

● السابع، التطبيق: وهو أن يلجأ إلى كل آية تفكر بها ويعمل على تطبيق مفادها على حاله، ويشفي بها أمراضه.

● الثامن، الإخلاص: وهو تخليص النية عمّا سوى الله تعالى والتوجه التام إليه.

● التاسع، التمسّك بالثقل الثاني وبالقرآن الناطق وهم أئمة الهدى عليهم أفضل الصلاة والسلام.

أسئلة الدرسين الخامس والسادس:

١ ـ ما هو دور القرآن في تهذيب النفوس؟

٢ ـ ما هي الحجب والموانع التي تقف بين القارىء والاستفادة من القرآن الكريم؟

٣ ـ كيف أصبح القرآن هادياً إلى المطلوب؟

٤ ـ لماذا أصبح التمسك بالثقل الثاني واحداً من الآداب المعنوية لقراءة القرآن الكريم؟

٥ ـ ما معنى قول النبي الاكرم «ص» : « القرآن غنى لا فقر بعده »؟

٧ و ٨ محبة اهل البيت (ع)

أفضل وسيلة لتهذيب النفس

السالك في صراط العبودية الحقة يلحظ في أوامر المعبود إصراراً وتأكيداً أو تخفيفاً واستحباباً، وهو على هذا الأساس، يقوم ببعضها بهمة ونشاط ومراقبة ووجل ويؤدي بعضها الآخر طلباً للأجر والثواب أو خوفاً من المكر والعقاب.

وبالجملة، فإن الله عز وجل قد أمر العبد الفقير بسلسلة من الأوامر الشريفة والتكاليف العظيمة التي لا يجوز التساهل فيها، وبها تكتسب بقية التكاليف والأعمال قيمتها الحقيقية وتنال قسطاً من القبول وتخرج من وادي سجّين. واعلم أن أشرف هذه الأوامر وأعظمها على الاطلاق هو التمسك بأهل بيت العصمة والطهارة عليهم صلوات الله وسلامه. كما ورد عن رسول الله (ص) في الحديث المشهور الذي رواه السنة والشيعة إلى حد التواتر:

«إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي...».

وسوف نبيّن في هذه الصفحات ان التمسك بأهل البيت (ص) يعد أمراً إلهياً لا يضاهيه أي أمر على الاطلاق، ومن خلاله يؤدي الانسان حقيقة العبودية التي هي طريق تهذيب النفس وإصلاحها.

لا يحصل التمسّك بأهل البيت (ع) إلا من خلال محبّتهم كما سنبيّن في القرآن الكريم والروايات الشريفة. ولكن قبل الحديث عن هذه المحبة ودورها في تهذيب النفوس نقدّم كلاماً في معنى الحب وأثره في السير والسلوك إلى الله.

١:٧ الحب وأثره في السير والسلوك إلى الله

الحب هـو تعلّق خاص وانجـذاب مخصوص بين المرء وكمالـه(*). فالإنسان يعشق الأشياء ويميل إليهـا لأنه يرى فيها سعـادته وكماله، وهو ينجـذب الى ما يرى كمالـه فيه. ولذلك فإن الأنبياء العظـام والأولياء الكرام (ع) لم يأتوا ليـزيلوا هذا التوجـه في نفس الإنسان وهذا التعلّق من وجوده فهو أمـر فطري بل جاؤوا ليصحّحـوا وجهـة الحب والانجـذاب، لأن الإنســان إذا أحبّ أمـراً قبيحـاً أو موهوماً لظنه ان كماله وسعادته فيه ينساق باتجاهه ويعمى عما سواه «الحب يعمي ويصـم»، وبالتالي فإن هذا الحب يحمله على ارتكاب القبيح وفعله حتى ولو كان قتل الـولي الأعظم. وكـذلك في الجهة المقـابلـة إذا أحب أمـراً جميلاً في الحقيقـة وحسناً، يحمله هذا الحب على فعل الحسن وحب الخير.

الأنبياء والمصلحون الإلهيون صححوا وجهة الحب وعرّفوا الإنسان على الكمال الحقيقي والسعادة الواقعية وأخبروه أن:

«مـا أحب أحد غير خـالقـه ولكنه تعـالى احتجب
تحت اسم سعاد وهند وزينب...»(**).

فالحب الأصيل في وجـود الإنسان حب الكمال المطلق والجمال الـلامتناهي، ولكن الإنسان بسـوء اختياره وفهمه يظن أن الجمال في الـدنيا ومظـاهرها الفـانية المحدودة. وهـو لا يدري أن هذه ليست إلاّ مظـاهر ذلك الجمال الأصيل. فإذا بقي الإنســان في حـالـة الجهل هذه، وقضـى أيام عمـره محتجبـاً عن المحبـوب الحقيقي فسـوف يصل في النهـايـة الى السراب، ويكتشف كم كـان بعيـداً عن الجمال والكمال.

الأنبيـاء، لم يبعثوا لتحطيم صـور الجمال في نفـوس الناس وإنما ليظهـروا لهم الجمال الحق وحق الجمال. وعــرّفـوهم على المبــدأ الأول الــذي يمنح كل جمال

(*) السيد محمد حسين الطباطبائي.

(**) ابن العربي.

وكمال. فإذا رجعوا إلى أنفسهم وعرفوا ذلك توجهوا إليه بفطرتهم وانجذبوا إليه بحسب جبلّتهم ليتقدموا بذلك في طريق الصلاح الأبدي والفوز السرمدي. الحب هو الأكسير الذي يذيب كل العلائق المادية في وجود الإنسان ويجعل النفس رقيقة مطواعة للحق والجمال. وما أجمل ما كتبه العلامة الخواجة الطوسي في شرح الاشارات لابن سينا بقوله:

«والحب النفساني هو الذي يكون مبدأه مشاكلة نفس العاشق لنفس المعشوق في الجوهر، ويكون أكثر إعجابه بشمائل المعشوق لأنها آثار صادرة عن نفسه وهو يجعل النفس لينة شيّقة، ذات وجد ورقّة منقطعة عن الشواغل الدنيوية».

حب الله إذا سطع على قلب إنسان أنساه ما عداه وأخرجه من حب الأنا والأنانية والتعلق بالدنيا الفانية التي كان حبها رأس كل خطيئة.

٢:٧ محبة أهل البيت هي عنوان التمسّك

لقد فهمنا أن الحب له دور كبير (لا يدانيه فعل آخر) في تهذيب النفوس وسوقها باتجاه الحق شرط أن يكون حباً للكمال الحقيقي لا الكمال الزائف.

الكمال الحقيقي هو الله تعالى. وحب أهل البيت (ع) ينبع من هذا الحب:

«إلهي لو وجدت شفعاء أقرب إليك من محمد وأهل بيته الأطهار لجعلتهم شفعائي...»

(الزيارة الجامعة).

وحبهم (ع) يجعل الإنسان منجذباً إليهم وهم الأولياء الكمل الذين وصلوا إلى أعلى المراتب الإنسانية وأسمى الفضائل الإلهية. فينجذب الإنسان إلى تلك المراتب العالية والفضائل السامية، ويجد نفسه محبة للخير والصلاح (أحب الصالحين ولست منهم). ولأن المعاصي والذنوب أوراق جفاء المحبوب، يمقتها

ويبتعـد عنهـا كي لا يطـرد من مجالسهـم ولا يحرم من صحبتهم (رزقنـا الله وإياكم).

أمـا الآيات الكـريمـة والروايـات الشريفـة التي تدل على هـذا المطلب فهي عديدة نذكر منها ما يكفي للدلالة والله المستعان:

ففي الكتـاب الشريف والسفر الجليل نجـد أن الله تعالى يحكي عن خطـاب الأنبياء السابقين في جواب أقوامهم الذين كانوا يعرضون عليهم أجراً بقوله:

﴿قل لا أسألكم عليـه من أجـر إنّ أجـري إلا على الله﴾.

فالأنبيـاء العظام (ع) كـانوا يردون على المعـاندين من أقـوامهم الذين كـانوا يعرضون الأجـر المادي مقابل السكوت وعـدم القيام والاصلاح، بهذا الجواب. كما كانـوا يجيبون به أتبـاعهم الذين كانـوا يرون أنفسهم غارقين في بحـر امتنانهم حيث هدوهم إلى السعادات الحقيقية وأنجوهـم من الشقاء والبؤس الأبدي. هذا الخطاب كان يرجع الأجر إلى الله وحـده. ولكننا نـجد أن القرآن يحكي عن خاتم الأنبياء خطاباً آخر فيه يحدد أجراً واضحاً على الرسالة والتضحيات العظيمة التي بذلها في سبيل هداية العالمين، بقوله:

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾.

فكانت محبـة أهل البيت (ع) أجراً مقابل الـرسالة والتضحيـات الجليلة التي قال عنها الرسول الأعظم (ص):

«والله ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت».

فصارت محبتهم فريضة:

«ولكم المودة الواجبة»

وهي الأجر الذي ينبغي أن يقدمه الإنسان على الهداية الى صراط الحق تعالى.

ولكن، إذا رجعنا مرة أخرى الى القرآن الكـريم نجد أن الرسول الخاتـم (ص) قد عاد إلى خطاب الأنبياء السابقين وبيَّن للناس أن الأجـر الذي طلبه لا يعود عليه بفائدة منهم وإنما الأجر الحقيقي من الله تعالى:

﴿قل ما سألتكم عليه من أجـر فهو لكم إنْ أجري إلاّ على الله﴾

فأية فـائدة تعود علينـا إذا أدينا هذا الأجـر الذي هـو محبة أهل البيت (ع). وكيف يمكن أن تكـون هـذه المودة؟ يجيبنـا القـرآن المجيـد في خطـاب اللطف والرأفة:

﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا﴾.

فـالمحبـة الواجبـة لأهل البيت صلى الله عليهم إنما هي صراط الله لـلإنسـان الأشرف الذي يمكّنه من الوصول إلى الكمال الإنساني والسعادة الحقيقية.

وعن أبي عبد الله (ع) قال:

«من أوثق عـــرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله» (الكافي، ج٢).

العـرى جمع عروة وهي الحبل. فأوثق حبـائل الـروابط الإيمانية هـو الحب أو العلاقة القلبية التي تنبع من الرابطة الإلهية.

وعن فضيل بن يسار قال: **«سألت أبا عبـد الله (ع) عن الحب والبغض أمن الإيمان هو؟ فقال (ع):**

«وهل الإيمان إلا الحب والبغض».

فالحب صار ممتـزجاً بالإيمان بحيث لا ينفصل عنه، وهـوية الإيمان الحقيقية

تتأكد بالعلاقة القلبية ، فإذا كان القلب متعلقاً بالحق ومنجذباً إليه ، كان الإيمان حقانياً قائماً على أساس متين . عن أبي عبد الله (ع) قال :

«قال رسول الله (ص) لأصحابه : أي عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم .

وقال بعضهم : الصلاة .

وقال بعضهم : الزكاة .

وقال بعضهم : الحج والعمرة .

وقال بعضهم : الجهاد في سبيل الله .

فقال (ص) : لكل ما قلتم فضل وليس به ، لكن أوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله وتولي أولياء الله والتبري من أعداء الله» .

لقد كان الرسول (ص) يحرص دوماً على توجيه المسلمين الى الوجهة الحقيقية في تلك الأجواء حيث كانت التعاليم الإلهية تتوالى عليهم ، مما يمكن أن يجعلهم يعطون الشرافة والأهمية والأفضلية لشيء هو أدنى من غيره ، وبالتالي تتجه سفينة حياتهم في مقابل طريق شاطىء الأمان كما حدث للكثير من المسلمين فيما بعد . فالحب في الله وحب أوليائه وتوليهم هو الذي يعطي الجهاد والحج والصيام والزكاة والصلاة قيمها الحقيقية . وعن أبي جعفر (ع) قال :

«إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك والمرء مع من يحب» .

١:٨ من نحب؟

قال رسول الله (ص):

«إن الله خلق الإسلام فجعل له عرصة وجعل له نوراً وجعل له حصناً وجعل له ناصراً، فأما عرصته فالقرآن، وأما نوره فالحكمة وأما حصنه فالمعروف وأما أنصاره فأنا وأهل بيتي وشيعتنا، فأحبوا أهل بيتي وشيعتهم وأنصارهم فإنه لما أُسريَ بي إلى السماء الدنيا فنسبني جبرئيل (ع) لأهل السماء، استودع الله حبي وحب أهل بيتي وشيعتهم في قلوب الملائكة، فهو عندهم وديعة إلى يوم القيامة، ثم هبط بي إلى أهل الأرض فنسبني إلى أهل الأرض، فاستودع الله عز وجل حبي وحب أهل بيتي وشيعتهم في قلوب مؤمني أمتي، فمؤمنوا أمتي يحفظون وديعتي في أهل بيتي إلى يوم القيامة، ألا فلو أن الرجل من أمتي عبد الله عز وجل عمره أيام الدنيا ثم لقي الله عز وجل مبغضاً لأهل بيتي وشيعتي ما فرّج الله صدره إلا عن النفاق».

إن حب أهل البيت عليهم السلام صار معياراً للإيمان، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

«لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنه قضي فانقضى على لسان النبي الأميّ (ص) أنه قال: يا علي لا يبغضك مؤمن، ولا يحبك منافق».

إن هـذا الحب يرتفع إلى درجـة يصبح معها سبباً لنجاة الإنسـان من الهلاك والشقاء الأبدي حتى لو وقع ـ والعياذ بالله ـ في الذنوب والمعاصي كما نستفيد من هذه الحادثة: فقد جيء في أيام خلافـة أمير المؤمنين برجل ارتكب حراماً أوجب قطع يده. فقال له أمير المؤمنين (ع):

لا بد أن أنفّذ الحكم.

وبعد ذلـك خرج الرجـل يحمل أصابعـه ويده تقطّـر دماً، فاقترب منـه ابن الكواء زعيم الخوارج الـذين أبغضوا علياً (ع) وحـاربوه، وسأله بنبرة فيهـا شفقة ورقة: من قطع يـدك؟ يريد بـذلك إثارة حنقه وكـرهه لأمير المؤمنين (ع)، حتى يرديه ويجعله في صفوف محاربيه. فما كان من ذلك الرجل إلا أن أجاب قائلاً:

قطع يميني سيـد الـوصيين وقـائد الغُـرِّ المحجلين وأولى الناس بالمؤمنين علي بن أبي طالب «ع»، إمام الهدى.. السـابق إلى جنـات النعيم، مصـادم الأبطـال، المنتقم من الجهـال، معطي الـزكـاة.. الهادي الى الرشاد والناطق بالسداد، شجاع مكي، جحجاح وفيٌّ..

فذهل ابن الكواء من جوابه وقال: أتمدح رجلاً قطع يدك؟

فأجابه مرة أخرى: وكيف لا أمدحه وقد اختلط حبه بلحمي ودمي.

وفي رواية أخـرى، دخل أبـو عبد الله الجدلي على أمير المؤمنين (ع) فقـال له الإمام (ع):

«يا أبا عبد الله ألا أخبرك بقول الله عز وجل: ﴿من جـاء بالحسنـة فله خير منهـا وهم من فـزع يومئـذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ (النمل-٩١, ٩٢)

قال : بلى يا أمير المؤمنين .

فقال (ع) :

> **الحسنـة معرفـة الـولاية وحبنـا أهل البيت والسيئـة إنكار الولاية وبغضنا أهل البيت» .**

وعن محمد بن الفضيل قال : «**سألته عن أفضل ما يتقرّب به العباد الى الله عز وجل قال :**

> **«أفضل ما يتقرّب به العباد إلى الله عـز وجل : طاعة الله وطـاعـة رسولـه وطـاعـة أولي الأمر. قـال أبـو جعفر(ع) : حبنا إيمان ، وبغضنا كفر» .**

فمحبــة أهــل البيت (ع) التي تنطلق مــن حب الله تصبح أفضل وسيلـــة لتهذيب النفوس من خلال الجاذبـة الرحمانية التي تجذب الإنسان نحو الكمال ، فتوقد في نفسه جذوة العشق السرمدي والشوق الدائم للّحاق بالمحبوب والتشرّف للقـائه . هـذه الجذوة إذا لم تطفأ فإنها تـرفـع الإنسـان من حضيض الجهـالات والتعلق بالكثـرات الفانيـة إلى مجالسة الأوليـاء ومتابعتهم بالقـول والعمل . ففي كتـاب العشق لا يسأل العـاشق لماذا تنحني أمام المعشـوق وتقبّل التراب الـذي تحت قدميـه وتتمرغ بسرج حصـانه ، فهنـا لغة أخـرى . وكل مـا نعرفـه أن هذا العشق يحطم جدران الغلظـة وحب الأنا حيث تتـوارى آثار مملكة عـالم الطبيعة وينعتق الإنسان من أسارة مظـاهرها الفانية . فكيف لنـا نحن المساكين الذين لم نرتشف من كأس محبتهم ولو لشربة وعشنـا في ساحة الجفاء والبعد عنهم فترة أن ندخل في وادي محبتهم لنـرتوي من حوض لقائهم حيث لا يـوجد في الدار غيره ديّار.

٢:٨ تحصيل المحبة

للوصول إلى محبـة أهل البيت والارتقاء بهذه المحبة الى درجة يـؤدي معها جزء

من أجر الرسالة وتحترق فيها جذور العلائق المادية يوجد طريقان أحدهما علمي والآخر عملي :

الطريق العلمي : وذلك بالتعرف على سيرتهم (ص)، فمعرفة سيرة الصالحين تؤجج نيران المحبة في قلب الإنسان المجذوب إلى الفضائل النفسانية والهبات الإلهية، والتعرّف على كلماتهم والتدبّر في تعاليمهم. كما ورد عن الباقر (ع) انه قال :

«علّموا الناس محاسن كلامنا فإنهم لو عرفوها لاتّبعونا»

أنظر إلى من قرأ في صفحات «نهج البلاغة» في درر كلمات الولي الأعظم وقطب عالم الإمكان هل رأيته إلا مجذوباً مدهوشاً ثم عاشقاً متيماً، من مآقيه تنهمر دموع الفرح والتعجب، وفي عيونه بكاء الحزن والفراق. فأي أمير أنت وأي ولي :

خلق يخجل النسيم من العطف — وبأس يذوب منه الجماد
زاهد حاكم حليم شجاع — ناسك فاتك فقير جواد

الطريق العملي : وأوله الاتباع، كما قال تعالى :

﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

لأن الإتباع والطاعة يولدان المحبة والمحبة تقويها. ولنعم ما قيل :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه — هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته — إن المحب لمن يحب مطيع

فإذا علم أن المعصية تبعده مقتها وابتعد عنها.

والأمر الآخر: المواظبة على زيارتهم بأي شكل كان من خلال الزيارات المشهورة وأهمها : **الزيارة الجامعة الكبرى وزيارة أمين الله وزيارة عاشوراء، أتظن أن أبا عبد الله (ع) يسمع سلامك ولا يرد الجواب؟**

خلاصة الدرسين السابع والثامن:

- أشرف الأوامر التي كلّف الله عز وجل عبده بها هي التمسّك بأهل بيت العصمة والطهارة (ص) لأنه من خلال هذا الأمر يؤدي الإنسان حقيقة العبودية التي هي طريق تهذيب النفس وإصلاحها.
- الحب تعلّق خاص وإنجذاب مخصوص بين المرء وكماله. ولأن الإنسان يعشق الأشياء التي يرى فيها سعادته وكماله وينجذب إليها، أتى الأنبياء العظام والأولياء ليصحّحوا وجهة هذا الحب ويوجّهوه حيث الكمال الحقيقي والسعادة الحقيقية.
- أرجع الأنبياء العظام (ع) أجر رسالاتهم إلى الله سبحانه وتعالى، إلاّ أن الرسول (ص) إشترط أجراً لرسالته وهو «المودة في القربى» مع أنه أكّد أن هذا الأمر إنما يعود بالفائدة على الإنسان نفسه وأن أجره الحقيقي ما هو إلاّ من الله.
- بقوله تعالى: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلاّ من شاء أن يتّخذ إلى ربه سبيلاً﴾ ظهر أن فائدة الأجر في مودة أهل البيت هو أن محبتهم (ع) هي صراط الله للإنسان الأشرف الذي يمكّنه من الوصول إلى الكمال الإنساني والسعادة الحقيقية.
- لأن لحب الكمال الحقيقي (وهو الله) دور كبير في تهذيب النفوس وسوقها باتجاه الحق أصبحت محبة أهل البيت التي تنطلق من حب الله أفضل وسيلة لتهذيب النفس وذلك من خلال الجاذبة الرحمانية التي تجذب الإنسان نحو الكمال.

● تحصيل محبة أهل البيت (ع) يتم عبر طريقين:

ـ الطريق العلمي: وذلك بالتعرف على سيرتهم والتدبر في كلامهم وتعاليمهم.

ـ الطريق العملي: ويكون باتباعهم وبالمواظبة على زيارتهم.

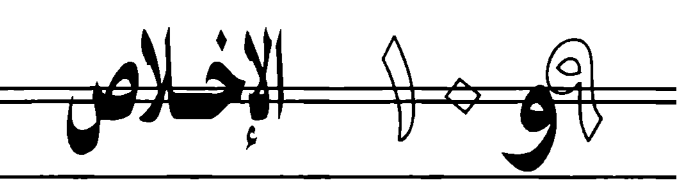
أسئلة الدرسين السابع والثامن:

١ ـ عن الصادق (ع): «وهل الدين إلّا الحب والبغض»، إشرح هذا القول؟

٢ ـ لماذا حب «أهل البيت» أفضل وسيلة لتهذيب النفس؟

٣ ـ تحدث عن الطريق الذي يمكن باتّباعه أن تحصل محبة أهل البيت (ع) في القلوب؟

٤ ـ كيف نعتبر أن محبة أهل البيت (ع) هي أفضل وسيلة لتهذيب النفس ونحن نرى بعض الموالين والمحبين لهم يرتكبون كثيراً من الذنوب والمعاصي؟



إعلم أن عبور العـوالم المعنوية وطي المدارج الغيبية لا يتم دون بـذل الجهد في مقـام العمل . ومجرد الاقتصـار على الإيمان القلبي وعـالم المعنى لا يحكى إلا عن النفاق الأكبر، لأن مـن لوازم الإيمان تلك الحركة الظـاهريـة كتعبير حقيقي عن الشوق الى المعبود، كما جاء في الحديث :

«ان العمل من الإيمان والإيمان لا يثبت إلا به» .

واعلم أيضاً أن تحصيل الفائدة المعنوية وحصول الأثر النوراني للعمل والذي به تكون حياة القلوب لا يكون إلا بعد رعاية جملة من الآداب المعنوية والتي أهمها الاخلاص . **«وحقيقته تصفية العمل عن شائبة سوى الله وتصفية السر عن رؤية غير الحق تعـالى في جميع الأعمال الصوريـة واللبية والظـاهريـة والباطينـة . وكمال الاخـلاص تـرك الغير مطلقـاً، وجعل الانّيـة والأنـانيـة والغير والغيريـة تحت الأقدام»** ، (الآداب المعنوية للصلاة ـ الإمام الخميني، ص ٢٩٤) .

١:٩ أقسام الإخلاص

إعلم أن الوصـول إلى المقامات والدرجات المعنـوية لا يمكن أن يحصل دون الإخـلاص في سبيل الحق، وما دام السـالك لم يصل الى منزلـة المخلصين، فلن يتم له كشف الحقيقة كما ينبغي . واعلم أن الاخلاص أو الخلوص على قسمين، **الأول**: خلوص الدين والطاعة لله تعالى . **الثاني**: خلوص النفس له تعالى .

والدلالة على الأول الآية الكريمة :

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾

وعلى الثاني الآية الشريفة :

﴿. . . إلا عباد الله المخلصين﴾ ،

والحديث النبوي المشهور:

«من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه»

يدل على القسم الثاني أيضاً ، أي أن الذي يصل إلى هذه المرحلة هو ذاك الذي أخلص نفسه لله تعالى . وبديهي أن تحقق الإخلاص في مرتبة الذات متوقف على الإخلاص في مرتبة العمل . أي ان الذي لم يخلص في أعماله وأقواله لن يصل الى مرحلة الإخلاص الذاتي . أما الذي يصل الى مرحلة الخلوص الذاتي وينال هذا الفيض العظيم فسوف تحصل له جملة من الخصائص والصفات لا تكون من حظ الآخرين ونصيبهم .

٢:٩ آثار الإخلاص

الأولى : الأمن من غواية الشيطان الرجيم ، كما ورد في القرآن المجيد :

﴿فبعزتِك لأُغوِينّهم أجمعين إلا عبادَك منهمُ المخلصين﴾ .

فلا يعود للشيطان قدرة على إغوائهم ، وبسبب ضعفه وعجزه لا يستطيع أن يصل اليهم في هذه المرحلة وإلا فإن الشيطان بحد ذاته ، إنما هو لإغواء بني آدم ، لا ممن يريد الترحم عليهم والامتناع عن إضلالهم .

الثانية : هذه الطائفة معفوة من حساب يوم الحشر الآفاقي والوقوف في

عرصاته. وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿ونفخ في الصور فصعق من في السمٰوات والأرض إلا من شاء الله﴾

حيث يستفاد من هذه الآية بشكل قطعي وجود جماعة تأمن صعقة يوم القيامة وفزعه. وإذا ضممنا إليها الآية الشريفة:

﴿فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين﴾

نعلم أن الطائفة التي هي في أمان من صعقة يوم القيامة هي عباد الله المخلصون، لأنه ليس لهم أعمال توجب حضورهم في عرصة يوم القيامة، فهم قد استشهدوا في ساحة جهاد النفس، وبواسطة المراقبة والرياضات الشرعية وصلوا إلى الحياة الأبدية السرمدية.

الثالثة: إن كل ما يعطى للإنسان من ثواب وأجر يوم القيامة سوف يكون مقابل ما عمله، إلا هذه الطائفة من الناس حيث تكون الكرامة الإلهية لهم ما وراء طور أجر العمل ومقداره:

﴿وما تجزون إلا ما كنتم تعملون إلا عباد الله المخلصين﴾

فكل ما تتعلّق به مشيئتهم سوف يحصلون عليه وزيادة. ويتضح أنهم يعطون من الكرامات الإلهية فوق الارادة والمشيئة وأعلى من مستوى التصوّر وأسمى من فضاء تحليق طائر رغباتهم:

﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾ (ق-٣٥).

الرابعة: لهؤلاء المخلصين المنصب الرفيع والمرتبة العلمية والعرفانية العظيمة التي يستطيعون فيها أداء الحمد والشكر للذات الأحدية بحيث لا ينزه الله نفسه عن وصفهم (والوصف فرع المعرفة). وبالتالي فقد وصلوا إلى مرتبة المعرفة

الحقيقية للرب المعبود، قال تعالى :

﴿سبحان الله عما يصفـون إلا عباد الله المخلصين﴾

(من رسالة لب اللباب بتصرف) .

٣:٩ درجات الإخلاص ومراتبه

١ ـ إحدى مـراتب الإخلاص تصفية العمل القلبي والقالبي عن شـائبة رضا المخلوق وجلب قلـوب المخلوقين سواء كان للمحمدة أو المنفعـة أو لغيرهما فإنه يكون رياء، وهو أحط وأدنى مراتب الرياء وصاحبه أرذل المرائين وأخسهم .

٢ ـ المرتبة الثانية : تصفية العمل عن حصول المقاصد الدنيوية والمآرب الزائلة الفانية . وإن كـان الداعي هو أن الله يعطيها بـواسطة هذا العمل كـاتيان صلاة الليل لتـوسعة الـرزق وإتيـان صلاة أول الشهـر للسـلامة من الآفـات في ذلك الشهر . وقـد عدّ بعض الفقهاء عليهم الـرحمة هذه المرتبة من الإخـلاص شرطاً لصحة العبـادة إذا كان إتيـان العمل للوصـول الى ذلك المقصود، وهـو خلاف التحقيق حسب القواعد الفقهيـة . وإن كانت هذه الصلاة عنـد أهل المعرفة لا قيمة لها أصلاً فهي كسائر المكاسب المشروعة بل لعلّها تكون أقل منها أيضاً .

٣ ـ المرتبة الثالثة : تصفيته عن الوصول إلى الجنات الجسمانية والحور والقصور وأمثالها من اللـذات الجسمانية كما هي حـال عبادة الأجـراء، فهذا أيضـاً في نظر أهل الله كسائر المكاسب ولكنه مشروع وجائز.

٤ ـ المرتبـة الرابعة : أن يصفّي العمل عن خوف العقـاب والعذاب الجسماني الموعود كما هي حال عبادة العبيد، فهـذه العبادة أيضاً في نظر أصحاب القلوب لا قيمة لها وخارجة عن نطاق عبودية الله ولكنها مشروعة وجائزة .

٥ ــ المرتبـة الخامسـة : تصفية العمل عـن الوصـول إلى السعـادات العقليـة واللـذات الروحـانيـة الـدائمة الأزليـة الأبـدية والانسـلاك في سلك الكـروبيين والانخراط في زمرة العقول القادسة والملائكـة المقرّبين . فهذه الدرجة وإن كانت

درجة عظيمة و المقصد عالياً ومهماً، والحكماء والمحققون يهتمون بهذه المرتبة من السعادة اهتماماً كبيراً ويرون لها قيمة، ولكنها في مسلك أهل الله من نقصان السلوك، وسالكها يعد كاسباً من الأجراء وإن كان له فروق مع سائر الناس في المتجر والمكسب.

٦ ـ المرتبة السادسة: تصفية العمل عن خوف عدم الوصول الى هذه اللذات والحرمان عن هذه السعادات، وهي أيضاً وإن كانت مرتبة عالية ولكنها أيضاً في نظر أهل الله عبادة العبيد.

١:١٠ في ذكر بعض درجات الإخلاص

قال الإمام الخميني (قده):

«فحيث وصل الكلام إلى هنا فلا بد لي من ذكر بعض الدرجات الأخرى للإخلاص تناسب المقام.

١ ــ فمن درجات الإخلاص تصفية العمل عن رؤية استحقاق الثواب والأجر وفي مقابله شوبه بطلب الأجر ورؤية استحقاق الأجرة والثواب، وهذا لا يخلو عن مرتبة من الاعجاب بالعمل، ولا بد للسالك من تخليص نفسه منه. وهذه الرؤية، رؤية الاستحقاق، هي من نقصان المعرفة بحاله وبحق الخالق تعالى شأنه، وهذا أيضاً من الشجرة الخبيثة الشيطانية التي مرجعها رؤية النفس وعملها والأنيّة والأنانية. فالإنسان المسكين ما دام في حجاب رؤية أعمال نفسه ويراها من عند نفسه ويرى نفسه متصرفاً في الأمر، فلن ينجو من هذا المرض ولن ينال هذه التصفية والتخليص. فالسالك لا بد له أن يجتهد بالرياضات القلبية والسلوك العقلي والعرفاني ليفهم القلب أن جميع الأعمال هي من الهبات الإلهية والنعم التي أجراها الحق تعالى على يد العبد، فإذا تمكّن التوحيد الفعلي في قلب السالك فلن يرى العمل من عند نفسه ولن يطلب الثواب بل يرى الثواب

تفضلاً والنعم ابتدائية. وقد ذكرت هذه اللطيفة الإلهية كثيراً في كلمات الأئمة الأطهار عليهم السلام وخصوصاً الصحيفة السجادية، تلك الصحيفة النورانية التي نزلت من سماء عرفان العارف بالله والعقل النوراني سيد الساجدين لخلاص عباد الله من سجن الطبيعة وتفهيمهم أدب العبودية والقيام في خدمة الربوبية، كما في الدعاء الثاني والثلاثين حيث يقول عليه السلام:

«لك الحمد على ابتدائك بالنعم الجسام والهامك الشكر على الإحسان».

وفي موضع آخر يقول:

«نعمك ابتداء واحسانك التفضّل».

وفي مصباح الشريعة يقول:

«وأدنى حد الإخلاص بذل العبد طاقته ثم لا يجعل لعمله عند الله قدراً فيوجب به على ربه مكافأة لعمله».

٢ ـ والدرجة الأخرى للإخلاص تصفية العمل من الاستكثار والفرح به والاعتماد وتعلّق الخاطر عليه. وهذا أيضاً من مهمات سلوك السالك، والاستكثار يمنع السالك من قافلة السالكين إلى الله ويحبسه في سجن الطبيعة، وهذا أيضاً ينبت من الشجرة الخبيثة الشيطانية ومنشؤه حب النفس الذي هو إرث من الشيطان الذي قال:

«خلقتني من نار وخلقته من طين»

وهذا من جهل الإنسان بمقامه ومقام معبوده جلّت عظمته. إذا كان المسكين الممكن يعرف مقام نقصه وعجزه وضعفه ومسكنته ويعرف مقام عظمة الحق ومجده وكماله فلن يرى عمله عظيماً أبداً ولن يحسب نفسه قائماً بالأمر. ولكن هذا المسكين يتوقّع لركعتين من أعماله، هذا العمل الذي لا تساوي سنة منه في

سوق أهل الدنيا أزيد من عـدة دراهم فيها إذا كانوا واثقين من صحته وإجزائه، توقعات غير متناهية. إن هذا هو الفرح والاستكثار للعمل الذي هو مبدأ لكثير من المفاسد الأخلاقية والأعمالية التي يطول ذكرها. وقد أشاروا عليهم السلام في الأحاديث إلى هذا المطلب، كما في الكافي الشريف بـإسناده إلى موسى بن جعفر سلام الله عليهما أنه قال لبعض ولده:

«يـا بني عليك بـالجد ولا تخرجنّ نفسك من حـد التقصير في عبادة الله عز وجل».

وقال عليه السلام في حديث آخر:

«كل عمل تريـد به الله عـز وجل فكن مقصراً عند نفسك فإن النـاس كلهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصّرون إلا من عصمه الله عز وجل».

وعنه عليه السلام:

«لا تستكثروا كثير الخير».

وفي الصحيفة الكاملة في وصف ملائكة الله يقول عليه السلام:

«الـذين يقولـون إذا نظـروا إلى جهنم تزفـر إلى أهل معصيتك سبحانك ما عبدناك حق عبادتك».

فيا أيها الضعيف المقام الذي يعترف فيه رسول الله بالعجز والتقصير ويقول: **«ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك»** وهو أعرف خلق الله، وعمله أنور وأعظم من أعمال جميع الناس. وكذا الأئمّـة المعصومون يظهرون ذاك النحو من القصور والتقصير في المحضر المقدس (فماذا يتأتّى من بعوضة نحيفة). نعم إن مقام معرفتهم بعجز الممكن وعزة الـواجب وعظمته تعالى شأنه كانت تقتضي تلك الاظهارات والاعترافات، وأما نحن المساكين فمن الجهل والحجب المتنوعة قمنـا بالتكبّر ونعجب بأنفسنـا وأعمالنا، فيـا سبحان الله مـا أصدق كـلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: **«عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله»**. فهذا

من فقدان العقل، إن الشيطـان يعمّي لنا أمراً ضرورياً ولا نقوم بوزنـه في ميزان العقل. إنّا نعلم بـالضرورة ان أعمالنا وأعمال جميع البشر بل أعمال جميع مـلائكة الله والروحـانيين في ميزان المقايسـة بأعمال رسول الله صلى الله عليه وآلـه والأئمة الهداة سلام الله عليهم ليس لها قـدر محسوس، ولا تعد شيئـاً، وفي نفس الوقت الاعتراف بالتقصير وإظهار العجز عن القيام بالأمر من هؤلاء الأعاظم متواتر بل فوق حـد التواتر، وهاتـان القضيتان الضروريتان تنتجان لنـا ألا نفرح بشيء من أعمالنا بل علينـا إذا قمنا بـالعبادة والطـاعة طول عمـر الدنيـا أن نكون خجلين وننكس رؤوسنـا في محضره. ومع هذا الـوصف فقـد تمكن الشيطـان من قلوبنـا وحكم على عقولنا وحواسنا بحيث لا نأخـذ نتيجة من هذه المقدمات الضرورية بل كانت أحوال قلـوبنا بعكس تلك النتيجة. إن مولىً كانت ضربـة واحدة منه يوم الخندق أفضل من جميع عبادات الجن والإنـس بتصديق من رسول الله يظهر في عباداته ورياضاته، التي كان علي بن الحسين وهو أعبد خلق الله يظهر العجز أن يكون مثلـه فيها، العجـز والتذلل والاعتراف بـالقصور والتقصير أكثـر منا. ورسول الله الذي كان عليّ المرتضى وجميع ما سوى الله عبيداً لجنابه ومتنعمين من سقطات مـوائد نعمته في معـارفه ومتعلمين بتعليمـه بعدمـا خلع بخلعـة النبوة الختميـة التي كانت تمام دائرة الكمال واللبنـة الأخيرة للمعـرفة والتـوحيد، يقـوم بالأمر عشر سنـوات في جبل حرّاء على قدميه ويقـوم بالطاعة حتى تتـورّم قدماه الشريفتان وأنزل الله تعالى عليه:

﴿طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ طه (١ـ٢)

أيها الطاهر الهادي ما أنزلنا عليك القرآن لتلقى المشقة فإنك طاهر وهاد وإن كان النـاس لا يطيعونك فهـو من نقصهم وشقاوتهم لا من نقصـان سلوكك أو هدايتك، ومع ذلك يعلن صلوات الله عليه عجزه وقصوره.

إن السيـد ابن طاووس (قـدس سره) ينقل حـديثاً عن علي بن الحسين عليـه السلام ونحـن نُبرِّك هذه الـرسالة بـه وان كان الحديث طـويلاً في الجملـة ولكن

حيث أنـه في شرح بعض حـالات المولى تتعطّـر شـامة الأرواح بـه وتلتـذّ ذائقـة القلوب منه .

عنه (قدس سره) في فتح الأبواب بإسناده عن الزهري قال :

«دخلت مع عليّ بن الحسين عليهما السلام على عبـد الملك بن مـروان قـال : فـاستعظم عبـد الملك ما رأى من أثـر السجـود بين عينيّ عليّ بن الحسين عليهما السلام فقال : يا أبا محمـد لقد بيّن عليك الاجتهاد ولقد سبق لك من الله الحسنى فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآلـه قريب النسب وكيد السبب و إنك لـذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك ولقـد أوتيت من الفضل والعلم والدين والـورع ما لم يؤتَ أحـد مثلك ولا قبلك إلا من مضى من سلفك . وأقبل يثني عليه ويطريه» ، فقال عليّ بن الحسين عليهما السلام :

«كل مـا ذكـرتـه ووصفتـه من فضل الله سبحـانـه وتأييـده وتـوفيقه فأيـن شكره على مـا أنعم يـا أمير المؤمنين ، كـان رسول الله صلى الله عليـه وآلـه يقف في الصلاة حتى تـرم قدمـاه ويظمأ في الصيام حتى يعصب فوه ، فقيل له يـا رسول الله ألم يغفر الله لك ما تقـدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقـول صلى الله عليه وآله : أفـلا أكون عبـداً شكوراً . الحمـد لله على ما أولى وأبلى ولـه الحمـد في الآخـرة والأولى والله لا يشغلني شيء عن شكـره وذكره في ليل ولا نهار ولا سر ولا عـلانيـة ولـولا أن لأهلي عليّ حقـاً ولسـائر الناس من خاصهم وعـامهم عليّ حقوقاً لا يسعني إلا القيـام بها حسب الـوسع والطـاقـة حتى أؤديها إليهم لـرميت بطـرفي الى السماء وبقلبي الى الله ثم لم أرددهما حتـى يقضيَ الله على نفسي وهـو خير

الحاكمين . . وبكى عليه السلام وبكى عبد الملك»
الخبر . .

ونحن أغمضنا عن ترجمة الحديث الشريف كما صرفنا النظر عن بعض مراتب الإخلاص الذي لا يناسب المقام ووضع الرسالة لئلا يوجب طول الكلام وملالة الخاطر.

٢:١٠ أحاديث في الاخلاص

قال رسول الله (ص) عن جبرئيل عليه السلام :

«الاخلاص سر من أسراري استودعته في قلب من أحببت من عبادي» .

قال أمير المؤمنين (ع) :

«طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينسَ ذكر الله بما تسمع أذناه ولم يحزن صدره بما أعطي غيره»

وقال (ع) : **«أمارات السعادة إخلاص العمل»**

قالت فاطمة الزهراء (ع) :

«من أصعد إلى الله خالص عبادته أهبط الله إليه أفضل مصلحته» .

وقال الصادق (ع) :

«ما أنعم الله على عبد أجل من ان لا يكون في قلبه مع الله غيره» .

خلاصة الدرسين التاسع والعاشر:

● إن عبور العوالم المعنوية وطي المدارج الغيبية لا يتم دون بـذل الجهـد في مقـام العمل، لأن مجرد الاقتصـار على الإيمان القلبي وعـالم المعنى لا يحكـي إلاّ عن النفـاق الأكبر.

● إن تحصيل الفـائدة المعنويـة وحصـول الأثر النـوراني للعمل لا يكون إلاَّ بعـد رعاية جملة من الآداب المعنـوية وأهمها: الإخلاص.

● الإخـلاص هـو تصفية العمل عـن شائبـة «سـوى الله» وتصفية السر عن رؤية غير الحق تعالى في جميع الأعمال الصورية واللبية والظاهرية والباطنية.

● الإخلاص أو الخلوص على قسمين: الأول: خلوص الدين والطاعة لله تعالى.

الثاني: خلوص النفس له تعالى.

وتحقق الإخلاص في مرتبة الذات متوقف على الإخلاص في مرتبة العمل.

● من آثار الإخلاص: الأولى: الأمن من غواية الشيطان.

الثانية: الإعفاء من حساب يوم الحشر الآفاقي والأمن من صعقة يوم القيامة.

الثـالثـة: الثـواب والأجـر بما وراء طـور أجـر العمل ومقداره.

الرابعة: أداء حق الحمد والشكر للذات الأحدية.

● من مـراتب الإخلاص: الأولى: تصفيـة العمل عن رجـاء رضا المخلوق.

الثانية: تصفية العمل عن حصول المقاصد الدنيوية.

الثالثة: تصفية العمل عن الوصول إلى الجنات الجسمانية والحور وغيرها.

الرابعة: تصفية العمل عن خوف العقاب والعذاب.

الخامسة: تصفية العمل عن الوصول إلى السعادات العقلية واللذات الروحية.

السادسة: تصفية العمل عن خوف عدم الوصول إلى الذات.

● من درجات الإخلاص الأخرى:

ـ تصفية العمل عن رؤية استحقاق الثواب والأجر.

ـ تصفية العمل من الاستكثار والفرح به.

أسئلة الدرسين التاسع والعاشر:

١ ـ ما هي علاقة الأخلاق بالتوحيد والتوحيد، بالأعمال؟

٢ ــ كيف ينبغي أن يكـون العمل حتى يصبح مخلصــاً لله سبحانه وتعالى؟

٣ ـ من آثار الإخلاص أن يستطيع المخلَص تأدية حق الحمد والشكر للذات الأحدية، فبأية صورة يكون هذا الحمد؟

٤ ــ هل أن الشيطـان يبتعــد عن العبـاد المخلصين حتى يصبحوا هم آمنين من غوايته؟ أم ماذا؟

٥ ـ ما هي حقيقة الاخلاص؟



١١و١٢ العوالم المتقدمة على عالم الخلوص

اعلم ان الوصـول إلى وادي المخلصين لا يمكن ان يتم الا بعد عبـور سلسلة من العوالم المعنوية التي هي بمنزلة الشرط اللازم، وهي تختصر السفر النفساني.

والمنازل العـرفانية. وعـدد هذه العوالم اثنا عشر عـالماً تبدأ بالاسـلام الاصغر وتنتهي بالجهاد الاعظم على الترتيب التالي:

١ـ الاسلام الاصغـر ٢ ـ الايمان الاصغر ٣ ـ الهجـرة الصغـرى ٤ ـ الجهـاد الاصغر ٥ ـ الاسلام الاكبر ٦ـ الايمان الاكبر ٧ ـ الهجـرة الكبرى ٨ ـ الجهـاد الاكبر ٩ ـ الاسـلام الاعظم ١٠ ـ الايمان الاعظم ١١ ـ الهجـرة العظمى

١٢ ـ الجهاد الاعظم.

شرح العوالم

١:١١ الاسلام الاصغر

وهو الباب الاول للدخول في قافلة السالكين، وهو الاسلام الظاهر، كما جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام:

« الاسلام هو الظاهر عليه الناس بشهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحجُّ البيت الحرام وصيام شهر رمضان»

فـالسالك في هـذا العالم يكـون مسلماً بلسانـه عبر الشهادتين دون ان يكـون

مذعناً بقلبه أو معترفاً بعقله . وينبغي الالتفات هنا جيداً إلى ان سلوك طريق الحق والعبودية والوصول إلى المقامات المعنوية لا يمكن ان يتحقق اذا لم يبدأ بالاسلام، وسلوك جميع الفرق والاديان ليس له أية قيمة إذا لم يبدأ به، كما قال تعالى بلسان الحق : «**ان الدين عند الله الاسلام**» . والدين هو منهج الحياة بما يتضمن سلوك طريق الله . وقال عز من قائل :

﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه﴾

وبالشهادة الظاهرية (اي الاسلام الاصغر) ينجو المسلم في الدنيا، ويمكن أن ينجو في الآخرة لان النجاة في الآخرة وحصول الثواب الحقيقي مشروط بالايمان كما ورد عن صادق آل البيت (ع) :

«الاسلام يحقن به الدم وتؤدى به الامانة وتستحل به الفروج والثواب على الايمان» .

٢:١١ الايمان الاصغر

وهو عبارة عن التصديق العقلي بالشهادتين، وما يلحق بهما من أصول الدين . وصورته ان يحصل للانسان الاذعان والجزم من خلال الدلائل والبراهين العقلية والمنطقية بحقانية الرسالة . وفي هذا الحديث :

« الايمان هو الهدى وما يثبت في القلوب من صفة الاسلام»

اشارة إلى هذا العالم . وحدود هذا العالم ترجع إلى نفس السالك، وانما الميزان فيه هو عبور جسر الشكوك والشبهات إلى منزل الطمأنينة والثبات العقلي . وربما يحصل هذا الامر لأحدهم بمجرد تحصيل ايمان العجائز (اي البرهان العقلي البسيط الساذج)، حيث سئل ذلك الأعرابي : بماذا عرفتَ ربك؟ فقال : البعرة تدل على البعير والاثر يدل على المسير، افسماء ذات ابراج وارض ذات فجاج ألا تدلان على اللطيف الخبير» .

وقد يتطلب الخروج من وادي الشكوك عند البعض دراسة أعقد الادلة الحكمية والبراهين الفلسفية. فالاطار الذي يحكم هذا العالم يتكون من أمرين أساسيين: **الاول**: إزالة الشك والشبهة للوصول إلى الترجيح أو اليقين. **الثاني**: أداء التكليف و إسقاطه

ففي الاول ينبغي الالتفات إلى خطورة بقاء الشبهات في منزل النفس، لأن من دأب هذه الافكار ان تخبِّىء نفسها ما دام السالك يعيش في طمأنينة، محاطاً بالاجواء الايمانية. فالشكوك في هذه الحال ضعيفة لا تقدر على المواجهة. فاذا عصفت رياح الابتلاءات ونزلت بوارق المصائب الشداد برزت تلك الشبهات شاهرة سيف القهر والتسلط. وقد شوهد اولئك الذين قطعوا المراحل العديدة من عوالم الايمان وهم يسقطون في مستنقع الانحراف، لأنهم عبروا هذا العالم دون أدنى تحصيل، غافلين عن تلك الشبهات والافكار الفاسدة.

وفي الثاني لا يكون النظر إلى الشبهة العلمية والشكوك العقائدية، فربما تكون حال السالك كمن ينظر إلى أدلة الفلاسفة والمتكلمين ثم يقول بلسان الحال: « **ألغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك. . .** »

ولكن يتعين عليه في هذا المقام تحصيل الادلة العقلية والوسائل العلمية للذود عن الشريعة ومواجهة المنحرفين بلغتهم وأساليبهم. أو عند إحتمال الوقوع في شبهات و إنحرافات، كالذي يسافر إلى البلدان الاجنبية لتحصيل العلوم والاختصاصات المهنية.

٣:١١ الهجرة الصغرى

فاذا وصل السالك إلى الاعتقاد الراسخ بحقانية الرسالة وعبر عالم الايمان الاصغر، عليه ان يقوم بحركة اجتماعية سياسية يُظهر من خلالها تميزه عن الكفار والمشركين، وذلك بترك بلاد الكفر والهجرة منها إلى بلاد الاسلام. فالبقاء والسكن في مناطق الكفار لا يجوز الا بالعناوين الثانوية كتعلم الفنون والصنائع

التي تفيد المجتمع الاسلامي وتنتشله من التبعية للمستكبرين أو التجسس لدفع الاخطار ورصد مخططات الاعداء وغيرها . . . والهجرة الصغرى هي الهجرة بالبدن الصوري وبالانتقال الظاهري من بلد إلى بلد .

٤:١١ الجهاد الاصغر

فاذا هاجر السالك ببدنه واعلن تميزه بتأسيس وطنه ، عليه أن يعلن الانزجار ويظهر العداوة للذين اشركوا ويتجهز لمحاربة الذين يترصدون للاسلام والمسلمين . فينضم إلى جيش الاسلام تحت راية الحق ويرابط على الثغور ويحدث نفسه بالغزو . وهكذا يصبح مجاهداً بالجهاد الاصغر وهو الجهاد بالسلاح الظاهري والدخول إلى ساحات الوغى والقتال . واعلم أن عبور المراحل اللاحقة متوقف على هذا العالم ، وما لم يدخل السالك إلى هذا العالم فلن يتم له الوصول ، وما يحصل له يكون من تسويلات ابليس اللعين أو المكر الالهي :

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ .

وإلى هذا المعنى إشارة في الحديث المشهور المنقول عن رسول (ص) :

« لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»

فالسياحة هي الطريقة التي يمشي عليها أتباع الدين وهي المنهاج الذي اشار إليه الله تعالى بقوله :

﴿ولكل منكم جعلنا شرعة ومنهاجاً﴾ .

وقد قام هذا الدين على الجهاد ، وكانت طريقته الجهاد إلى يوم القيامة .

٥:١١ الاسلام الاكبر

قال الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾

وهو أمر إلى الذين آمنوا بالايمان الاصغر للدخول إلى عالم الاسلام الذي هو التسليم والانقياد وترك الاعتراض على الله ورسوله .

قال الصادق عليه السلام :

«لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت الحرام وصاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه الله أوصنعه رسول الله (ص) : الا لو صنعَ بخلافِ الذي صنعَ ، أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين . . (إلى أن قال عليه السلام) : فعليكم بالتسليم» .

وفي حديث أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الاسلام اشارة إلى هذا العالم بقوله :

«الاسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين» .

قال تعالى :

﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه﴾

سئل الصادق عليه السلام : ما حقيقة العبودية؟ قال :

«ثلاثة اشياء . ان لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكاً . لان العبيد لا يكون لهم ملك ، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم . ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً وجملة اشتغاله (يكون) فيما أمره الله تعالى ونها عنه . . . فاذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هانت عليه الدنيا ، وابليس ، والناس ، ولا يطلب الدنيا تكاثراً ولا تفاخراً ، ولا يطلب ما عند الناس

عـزاً ولا علواً. ولا يـدع أيامـه بـاطلاً، فهـذه أول درجات التقى . . . »

٦:١١ الايمان الاكبر

قال الله تعالى :

﴿ يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾

وهو عبارة عـن تجاوز الاسلام الاكبر من مرتبة التسليم والانقيـاد والطاعة إلى مرتبة الرغبة، وتعدي الاسلام من العقل إلى الروح. فيكتب بقلم العقل على لوح القلب ما ثبت في الاسلام. وعلامتـه انقياد الاعضاء والجوارح لسلطان القلب، فلا ينطق نطقاً ولا يقدم رجلاً ولا يحرك يـداً ولا ينظر بغير أمره، وإلى هذه المرتبة تشير الآيات الكريمة :

﴿ قـد أفلـح المؤمنـون * الـذين هـم في صـلاتهم خـاشعـون* والذين هـم عن اللغو معـرضـون* والذين هم للـزكاة فاعلون* والـذين هم لفروجهم حافظون . . ﴾ (المؤمنون ٢ ـ ٥)

وايضاً الآية الكريمة الشريفة :

﴿ الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله . . . ﴾

تخاطب اولئك الذين اقتصروا في سلوكهم على تغذيةالعقل، وارتووا من ينابيع الادلـة البرهانيـة، ونهلوا من شرب الافكـار المنطقية، وتـدعوهم لـدخول منـزل الطمأنينـة وارواء القلب من عطـش الجفـاء والاضطـراب ليكـونـوا من المؤمنين بالايمان الاكبر، كما حكى عز من قائل عنهم :

﴿انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً﴾

قال الصادق عليه السلام :

«إنَّا لا نعـد الرجل مؤمنـاً حتى يكون لجميع أمـرنا متبعاً مريداً، الا وان من اتباع امرنا وارادته الورع»

وقد عد الورع مرتبة خضوع اعضاء الانسان وجوارحه كافةً للحق .

ويعين عليه المواظبة على المستحبات الشرعية والنوافل الالهية التي لها مدخلية عظيمة في رسوخ الايمان وثبوته في القلب :

«الايمان لا يثبت الا بالعمل والعمل منه»

١:١٢ الهجرة الكبرى

وهي عبارة عن تـرك أهل اللغو والفسوق ممن يعيشـون في المجتمع الاسلامي أو الابتعـاد عن الذيـن يخالفونـه في أمـر السلوك ويقفـون حجـر عثـرة أمامـه . فـالسالك عنـدمـا يبدأ بعبـور العوالم المعنـويـة يحصل التمايز الحتمي بينـه وبين الآخرين، لان من مقتضيـات هذا السفـر ترك اللغـو ومجالس البطالين والسعي للاستفادة الكـاملة من الفرص وعدم تضييع الوقـت . هذا التمايز يجعل من هم أدنى منه يحملون عليه سياط التـوبيخ والملامة لما يصدر عنه من اعمال وتصرفات لا وجـود لتفسير لها في قـامـوس حيـاتهم، كمن يختـار مقـام الـزهـد في مجتمع المرفهين، ويخالفهم في عـاداتهم وتقـاليـدهم . وقـد عد أهل الطـريقـة ان تـرك العـادات والـرسوم من أولى مهمات السير والسلـوك إلى الله . وبـدونـه لا يمكن للسالك ان يتقـدم في ميدان الجهـاد الاكبر ويخلص في صراط العبوديـة الحقة . فعلى الســالك ان يشمـر عن ســاعــد الهمـة ولا يخشى هــذه التـوبيخـات والاعتراضـات، ويهاجـر بـالهجرة الكبرى، كما حكى ابـو عبـد الله (ع) لمهـزم الاسدي :

«يـا مهـزم شيعتنـا من لا يعدو صـوتـه سمعـه ولا شحناؤه بـدنه ولا يمتدح بنا معلنـا، ولا يجالس لنا

غائبـا (مستغيباً) ولا يخاصم لنا قاليـاً (مبغضاً) إن لقي مؤمناً اكرمه وان لقي جاهلاً هجره»

وقال أمير المؤمنين (ع):

«ويقول الـرجل هاجرت ولم يهاجر، إنما المهـاجرون الذين يهجرون السيئات ولم يأتوا بها . . . » .

٢:١٢ الجهاد الاكبر

وهـو جهـاد النفس الامـارة، ومحاربـة آثـار الإنيـة والانـانيـة، لقـول رسول الله(ص):

«رجعنا من الجهاد الاصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال جهاد النفس» .

وسوف يأتي الحديث عن هذا العالم مفصلاً في الدرس الثالث عشر.

٣:١٢ الأسلام الأعظم

بعـد أن يحصل للسـالك الفتـح والظفـر في ميـدان الجهـاد الأكبر ويتغلب بـالاستمـداد من الجنود الـرحمانيـة على جنـود ابليس، يدخل إلى عـالم الاسـلام الاعظم. فالانسان قبل دخولـه في عالم الفتح والظفر والتغلب على حزب ابليس يكون أسيراً في عـالم الطبيعة وجنـود الوهم والغضب والشهـوة ومغلوبـاً من قبل الاهـواء المتضادة، تحيط بـه الآمـال والاماني، وتستـولي عليـه الهموم والغمـوم، وتزاحمه (وتـزعجه) العادات والـرسوم وتـؤلمه منافيات الطبع ومنفـرات الخواطر، وتدور حولـه الاسقام والآلام، تارة من مصائب الاهل والعيـال وطوراً من خوف تلف المال والمنال، أحياناً يريد جاهاً ولا يصله، واحياناً يبحث عن منصب فلا يلقاه.

فاذا وفق بتـوفيق الرب الـرحيم للتغلب على جنود الـوهـم والغضب والشهوة

وخلص من مخالب العلائق والعوائق وودع عالم الطبيعـة وخرج من بحر الاوهام والآمال، فسوف يجد نفسه جوهراً واحـداً وجوهرة بلا مثيل تحيط بعالم الطبيعة، مصونـاً من الموت والفناء، فـارغاً من الآلام والهموم، ويشـاهد في نفسـه صفاءً وبهاءً ونوراً وضياءً هو فوق إدراك عالم الطبيعة لأنه قد وصل إلى مرحلة «مُتْ عن الطبيعـة» وعبر إلى الحياة الحقيقيـة، وبسبب عبوره من قيـامة النفس الصغـرى بموت النفس الامارة فسوف يصل إلى المشاهدات المعنوية الملكوتية.

فاذا لم تتـداركه في هذه الحال العنـاية الازليـة فسوف يقع في حجاب الانـانية نتيجة مـا شاهده في نفسه، فيطبل «انـا الموجود» ويصبح عدوه في هـذه المرحلة رئيس الابالسـة والعدو الداخلي الـذي هو النفس والإنيـة. وإليه يشير الحديث الشريف:

« مـــا بينهم وبين ان ينظـــروا إلى ربهم الا رداء الكبرياء»

ولولا العجب للاحظـوا انوار اللاهوت. وهذه هي عبـادة الاصنام التى كان النبي ابراهيم عليه السلام يتعوذ بالله منها:

«واجنبني وبنيّ ان نعبد الاصنام»

وكما قيل:

«أمّ الاصنام صنم نفسك».

مقابل هذا الكفر الاعظم يكون الاسلام الاعظم الذي هو عبارة عن التصديق بالفقـر والعجز والمذلـة وحقيقة العبـودية، بعـد كشف حقيقة مـا شاهـده من الاحاطـة والنور في انـه عين الفقر وسـواد الظلمة، فيقطع النظـر إليها في جنب الوجود المطلق والنور المحض.

﴿الله نور السموات والأرض﴾

٤:١٢ الايمان الاعظم

وهو عبارة عن مشاهدة ومعاينة عدميته بعد التصديق والاذعان بذلك في عالم الاسلام الاعظم، وحقيقته شدة ظهور ووضوح الاسلام الاعظم وتجاوزه من حدود العلم والاذعان إلى مرحلة المشاهدة والعيان.

في هذه المرحلة يرتحل السالك من عالم الملكوت وتقوم قيامته الكبرى الانفسية ويدخل إلى عالم الجبروت، وفي طلب هذا المقام قيل:

بيني وبينك إنيي ينازعني فارفع بلطفك انيي من البين

٥:١٢ الهجرة العظمى

وهي عبارة عن هجرة وجوده ورفضه والسفر إلى عالم الوجود المطلق والتوجه التام إليه. كما قيل:

«دع نفسك وتعال».

٦:١٢ الجهاد الاعظم

وفيه يقوم السالك بالاستمداد والتوسل بالمليك المقتدر بعد الهجرة العظمى لمواجهة آثار وجوده الضعيف حتى ينفيها مطلقاً ولا يبقى لها باقية، ليتقدم بعدها إلى بساط التوحيد المطلق.

خلاصة الدرسين الحادي عشر والثاني عشر:

- إن الوصول إلى وادي المخلصين لا يمكن أن يتم إلاَّ بعد عبور سلسلة من العوالم المعنويــة التي هي بمنزلة الشرط اللازم له، وهي اثنا عشر عالماً.
- أول العوالم، الإسلام الأصغـر: وهو الإسلام الظاهـر الذي يتحقق بالشهادة الظاهرية. ولا يمكن الوصول إلى المقامات المعنوية إذا لم يبدأ بالإسلام.
- ثاني العـوالم، الإيمان الأصغر: وهــو عبارة عن التصــديق العقلي بــالشهــادتين ومــا يلحــق بهما من أصــول الـدين. والميـزان فيـه عبور جسر الشكـوك والشبهـات إلى منـزل الطمأنينة والثبات العقلي وتحصيل الأدلة العقلية للذود عن الشريعة.
- ثــالث العـوالم: الهجـرة الصغـرى: وهي القيـام بحـركـة اجتماعيــة سياسيــة يُظهر الســالك من خلالها تميّـزه عن الكفار والمشركين، وذلك بترك بلاد الكفـر والهجرة منها إلى بلاد الإسلام. وهي هجرة بالبدن.
- رابع العوالم، الجهاد الأصغر: وهو إظهار الانزجار والعداوة والتجهيـز لحرب المترصـدين لـلإســلام. وعبـور العــوالم اللاحقة متوقف على هذا العالم.
- خــامس العــوالم، الإســلام الأكبر: وهــو عبــارة عن تجاوز الإســلام الأكبر من مرتبــة التسليم والانقيـاد والطاعــة إلى مرتبة الرغبة، وأيضاً تعدي الإسلام من العقل إلى الروح.
- ســادس العــوالم: الايمان الاكبر ، وهو عبــور الاســلام من العقل إلى القلب وعـــلامتـــه انقيـــاد الاعضـــاء والجوارح وحصول مقام الورع.
- ســابع العــوالم، الهجرة الكبرى: وهي عبــارة عن تــرك أهل

الفسوق واللغو ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي، والابتعاد عن الذين يخالفون السالك في السلوك ويقفون حجر عثرة أمامه.

- ثامن العوالم، الجهاد الأكبر: وهو جهاد النفس الأمّارة، وفيه يعبر السالك إلى الحياة الحقيقية. من مخاطر هذا العالم وقوع السالك في حجاب الأنانية بسبب ما يشاهده في نفسه من المشاهدات المعنوية الملكوتية.
- تاسع العوالم، الإسلام الأعظم: وهو صرف النظر عن النفس والتصديق بالفقر والعجز والمذلة وحقيقة العبودية.
- عاشر العوالم، الإيمان الأعظم: وفيه يشاهد ويعاين السالك عدميَّته، حيث يرتحل من عالم الملكوت وتقوم قيامته الكبرى الأنفسية ويدخل عالم الجبروت.
- العالم الحادي عشر، الهجرة العظمى: وهو عبارة عن هجر السالك لوجوده والسفر إلى عالم الوجود المطلق.
- العالم الثاني عشر، الجهاد الأعظم: وهو أن يواجه السالك آثار وجوده الضعيف حتى ينفيها مطلقاً ولا يبقى لها باقية.

أسئلة الدرسين الحادي عشر والثاني عشر:

١ ـ لماذا كان الإسلام الأصغر الشرط الأول للدخول في السير والسلوك إلى الله؟

٢ ـ هل ينبغي أن يمر كل سالك مهما كان موقعه في عالم الجهاد الأصغر حتى يستطيع أن يعبر العوالم الأخرى؟

٣ ـ هل يمكن للإنسان أن يطوي العوالم المعنوية بدون التعلم، ولماذا؟

٤ ـ هل يوجد فرق بين الإيمان الأكبر والإيمان الأعظم، بيّنه وبين كيفية الوصول إلى الأعظم؟

١٣ شروط ومهمات عالم الجهاد الأكبر

قال الامام الخميني (قده) في إشارة إلى المقام الأول للنفس :

«إعلم أن مقام النفس الأول ومنزلها الأسفل، هو منزل الملك والظاهر وعالمها. وفي هذا المقام تتألق الأشعة والأنوار الغيبية في هذا الجسد المادي والهيكل الظاهري، وتمنحه الحياة العرضية، وتجهز فيه الجيوش، فكأن ميدان المعركة هو نفس هذا الجسد، وجنوده هي قواه الظاهرية التي وجدت في الأقاليم الملكية السبعة يعني: «الأذن والعين واللسان والبطن والفرج واليد والرجل». وجميع هذه القوى المتوزعة في تلك الأقاليم السبعة هي تحت تصرف النفس في مقام الوهم، فالوهم سلطان جميع القوى الظاهرية والباطنية للنفس، فإذا تحكم الوهم على تلك القوى سواء بذاته ـ مستقلاً ـ أو بتدخل الشيطان، جعلها ـ أي تلك القوى ـ جنوداً للشيطان، وبذلك يجعل هذه المملكة تحت سلطان الشيطان، وتضمحل عندها جنود الرحمن والعقل، وتنهزم وتخرج من نشأة الملك وعالم الإنسان وتهاجر عنه، وتصبح هذه المملكة خاصة بالشيطان. وأما إذا خضع الوهم لحكم العقل والشرع، وكانت حركاته وسكناته مقيدة بالنظام والعقل والشرع، فقد أصبحت هذه المملكة مملكة روحانية وعقلانية، ولم يجد الشيطان وجنوده محط قدم لهم فيها.

إذاً، فجهاد النفس (وهو الجهاد الأكبر الذي يعلو على القتل في سبيل الحق تعالى) هو في هذا المقام عبارة عن انتصار الإنسان على قواه الظاهرية، وجعلها

تأتمر بأمر الخالق، وتطهير المملكة من دنس وجود قوى الشيطان وجنوده».

اعلم ان لهذا العالم، الـذي يعد الفتح والظفر فيـه فتحاً مبيناً وفـوزاً حقيقياً، شرائط ومهمات، وبـرعايتهـا تتم له الغلبـة أو يقتل في هذا المضمار فتحصل لـه الحياة الحقيقية لقوله تعالى:

﴿ولا تحسبن الـذين قتلـوا في سبيـل الله امـواتـاً بل احياء عند ربهم يرزقون﴾.

وهذه الشروط أربعة على الشكل التالي:

الاول: معرفة النفس،

الثاني: معرفة الله،

الثالث: معرفة الأمراض،

الرابع: الأعمال والرياضات.

فكما أن المجاهد بالجهاد الأصغر عليـه أن يعرف عدوه الحقيقي الذي يترصد له ويكيـد له، ويحدد درجـات الأعداء وأولـوية المعـركة حتى لا يقـع في حروب جانبية تضره أكثر مما تنفعه، كذلك فـإن المجاهد بالجهاد الأكبر عليه أن يتعرف على حقيقـة العـدو الـذي يـريـد أن يـرديـه ويجعلـه من الهالكين. وقـد ورد في الحديث:

«إن اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك».

ففي محاربة آثار النفس والأنانية ينبغي للمجاهد بالجهاد الأكبر أن يتفطن إلى العدو الذي يحاربه وكيفية محاربته بالطرق الشرعية.

والمجاهد في سـاحة الحرب والوغى عليه أن يتعلم فنـون القتال ويتدرب على استخدام الأسلحة المنـاسبة، وكذلك المجاهد في ميـدان النفس عليه أن يستمد من الجنـود الرحمانيـة ويتصل بسـاحة العـز الإلهيـة ويعلم أن معـرفة الـرب هي

السلاح الأول في مواجهة العدو الحقيقي ومجاهدته.

والمقاتل في معركة الظاهر يتعرف على نقاط العدو ومكامنه وحصونه وطرقه ووسائله التي ينفذ من خلالها للقضاء عليه، لأن معرفة هذه النقاط تفيده عند التحضير لساعة الهجوم والمباغتة أو عند الدفاع والمرابطة. والمجاهد بالجهاد الأكبر يتعرف على أمراض النفس وطرق نفوذ الشياطين الغدارة ومكامن الحجب الظلمانية وعلائم الحجب النورانية حتى لا يقع أسير الأعداء الحقيقيين وتكون خسارته فادحة عظيمة.

فإذا تم ذلك أمكنه أن يبدأ بعملية المواجهة وتطهير الأرض من رجس العدو، والمجاهد بالجهاد الأكبر تكون وسيلته في الهجوم تلك الرياضات والأعمال الشريفة الشرعية التي ينظمها في برنامج متكامل يسمى البرنامج السلوكي.

معرفة النفس

قال أمير المؤمنين (ع)

«من لم يعرف نفسه، بعد عن سبل النجاة، وخبط في الضلال والجهالات»

اعلم أن معرفة النفس هي الشرط الاول للدخول في ميدان الجهاد الأكبر **«ميدان جهادكم الحقيقي أنفسكم»**، والتهاون في هذا الامر موجب للضياع والضلالة. ولهذا نجد أن المدارس الاخلاقية والسلوكية في عالم الاسلام، بل في عالم الاديان والمذاهب، قد افترقت عند هذا الفهم. فكل مدرسة رسمت برامجها السلوكية وعلاقاتها وروابطها مع عالم الوجود على أساس التصور الذي كانت تمتلكه عن حقيقة النفس الانسانية. ويكفي أن نشير الى الفرق الصوفية لكي نفهم بصورة واضحة مدى الاختلاف والانحراف الذي يحدث على أثر الفهم الخاطىء والاعتقاد الفاسد والباطل حول النفس.

فقد ورد في الاحاديث الشريفة عبارات تشعر بضرورة تحقير النفس واذلالها

لأنها عـدو الأنسـان، وفهم جماعـة من الصـوفيين هذه التعـابير فهماً خـاطئـاً، وانقسمـوا إلى فئتين؛ الفئـة الاولى: ظنت ان النفس التي ينبغي لـلانسـان ان يجاهـدهـا هي الجسـد ومتعلقـاتـه من حب الشهـوات والملـذات، واعتبروا ان الأنسان انما يسمو إلى كمال انسـانيته كلما عذب هذا الجسد وحرمـه من ملذاته. فالجسد في تصورهم سجن الروح يحبسها عن الطيران إلى عوالم الملكوت والجلوس في محضر الانس مع الملائكـة المقـربين، وهـو يجمح في رغبـاتـه فيما إذا لبّـاهـا وأعطاها ما تريد. وعلى هذا الأساس فقـد اوصوا بمجموعة من الرياضات التي تساعد على كبح جماحـه من خلال تعذيبه أو تحقيره. وكانـوا يلبسون الصوف في حر الصيف (ولذلك سموا بالمتصوفة)، وكان بعضهم يقف على رأسه من المساء حتى الصباح أو يمشي لأيام على رجل واحدة و. . .

وفئة أخـرى تصورت من خـلال الروايـات المذكورة كأحـاديث إماتـة النفس واسخاطهـا أن العدو الحقيقـي هو ذات الأنسان، هـذه الذات ينبغـي ان تحقر وتمرغ في تراب المذلـة لكي تسمو إلى الاعلى، كما نجد في نصـوصهم: «لن يكون الصوفي صوفياً حتى يرمل زوجته وييتم أولاده ويأكل على مزابل الكلاب» او كما ينقل عن أحدهم حين يقـول: انني لم أشعر بالسعادة في حيـاتي مثلما شعرت في ثلاثـة أحوال: الواحدة عنـدما كنت مريضـاً كنت أصلي في المسجد وقعت على الأرض من شدة الإعياء ولم أتمكن من الوقوف، فجـاء خادم المسجد وأخذ يوقظ الفقراء والمتسـولين الذين كانوا ينـامون في المسجد ويطردهم، وعنـدما وصل إليَّ قال بلهجة شديدة: قم! ثم ركلني بقدمه عدة ركلات فلم استطع القيام. خرج الجميع وبقيت أنـا. حتى جـاء الخادم مجدداً ثم جـرني من رجلي كجثة هـامـدة ورماني خارج المسجد. لقد سررت كثيراً لأنني رأيت نفسي قد ذلت وحقرت.

المرة الثانية عندما كنت مسافراً على متن سفينة. وكان على ظهرها مهرج أخذ يقوم بـاداء حركـات ورواية قصص لإضحـاك الناس. وأثنـائها قـال: كنت في معركـة ضد الكفـار وتصاولنا، وهنـاك رأيت كافـراً وسخاً، فتقـدمت نحوه ثم أخذت بلحيتـه وصرت أجره بها، ثم نظـر ذلك المهرج إليَّ ولم يجد من هـو أدنى

مني وأحقـر ولكي يمثل المشهد أمـامهم تقدم نحـوي وسحبني من لحيتي حتى ضحك النـاس كثيراً. وهناك سررت كثيراً لأنني رأيـت هذه النفس كم صـارت حقيرة ومهانة.

المرة الثالثة عندما كنت في إحدى الشتاءات في مكـان ما. لما خرجت منه إلى تحت الشمس، نظـرت إلى معطفي (جّبيّ) فرأيت ان القمل قـد تكاثـر عليه إلى درجة لم أميزه عن خيطانه ووبره[1].

وهكـذا نجد أن الفهـم الخاطىء وعدم التشخيص الـدقيق للعـدو الحقيقي أدى بهؤلاء إلى الوقوع في انحرافات كبيرة والخروج عن حدود الله تعالى.

فالله تعالى يقول:

﴿قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي خالصة للذين آمنوا... ﴾

وقال حبيبه أشرف الخلق أجمعين (ص):

«الزواج سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»

ويكفي دلالة سنةُ الرسول الاعظم (ص) وخلفائه الميامين الذين كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجـون النساء ويعيشون في متن الحياة الاجتماعيـة مع الحفاظ على حريم الحرم الالهي وأنوار العالم الغيبي، فهم في عين:

﴿قل انما انّا بشر مثلكم﴾،

كان لهم:

« مع الله حـالات لا يسعهـا ملك مقـرب ولا نبي مرسل».

وبالنسبة للفئة الثانية فقد جاء في الحديث:

«إن الله تعالى فوض للمؤمـن أموره كلها إلا أن يذل نفسه»

والمراد من إمـاتة النفس التي وردت في الاحـاديث إماتة النفـس الامارة ولهذا فرق كبير مـع تحقير مطلق النفس وإسقاط الكـرامة التي حبـاها الله لـلانسان . وكثيرة هي الاخطاء التي ارتكبت نتيجة التصور المغلوط حول النفس الانسانية .

فاعلم ـ هدانا الله واياك ـ ان الله تعالى خلق الانسان وركب نفسه المجردة على مـراتب سبع ، وهي في عين الـوحـدة ذات قوى عـديـدة ، كما ينقل عن لســان العرفاء :

«النفس في وحدتها كل القوى» ،

وهذه المراتب هي :

١ ـ البـدن ، ٢ ـ الخيـال ، ٣ ـ العقل ، ٤ ـ القلب (أو الروح) ، ٥ ـ السر ،

٦ ـ الخفي ، ٧ ـ الاخفى .

ولكل مـرتبـة من هذه المراتب أمـراض واعـداء هي التي ينبغي للســالك ان ينهض لمجاهدتها والقضــاء عليها ، والا فإن نفس الذات أو نفس النفس ليست عدواً ، والله تعالى أمرنا بتكميلهـا ورفعها إلى مجاورة الملكوتيين ومجانستهم وسوف يأتي الحديث عن هذا بالتفصيل في الدرس الخامس عشر.

خلاصة الدرس الثالث عشر:

- إن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس الأمّارة وهو عبارة عن انتصار الإنسان على قواه الظاهرية وجعلها تأتمر بأمر الخالق، وتطهير مملكة وجوده من دنس وجود الشيطان وجنوده.
- لعالم الجهاد الأكبر شروطٌ إن استطاع السالك أن يرعاها فقد تتحقق له الغلبة أو أنه يقتل في هذا المضمار فتحصل له الحياة الحقيقية.
- أول الشروط: معرفة النفس، التي هي عدوه.
- والثاني: معرفة الله الذي يمده بالجنود الرحمانية.
- والثالث: معرفة أمراض نفسه وطرق نفوذ الشياطين الغدارة إليها.
- والرابع: معرفة البرنامج السلوكي الذي يمكنه من مواجهة هذه النفس وإصلاحها.
- إن الفهم الخاطىء والاعتقاد الباطل حول معرفة النفس يؤدي بالسالك إلى الإنحراف والخروج عن حدود الله.
- من شروط معرفة النفس أن يعلم السالك أن المقصود ليس مجاهدة مطلق النفس، بل النفس الأمارة بالسوء.
- في معرفة النفس ينبغي أن يعرف السالك أن الله ركب نفسه المجردة على مراتب سبع لكل منها أمراض وأعداء هي التي ينبغي أن ينهض لمجاهدتها.

أسئلة الدرس الثالث عشر:

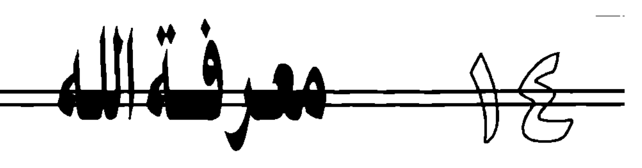
١ ـ كيف يصبح الجهاد الأصغر مدرسة للجهاد الأكبر؟

٢ ـ لماذا قيل ميدان جهادكم أنفسكم؟

٣ ـ بين أهمية معرفة النفس في حقيقة الوصول إلى الله تعالى؟

٤ ـ ما المقصود من الحديث: «إن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك».

٥ ـ لماذا يقوم البعض باذلال أنفسهم وتحقيرها؟



> **لماذا كانت معرفة الله شرطاً من شروط عالم الجهاد الاكبر؟ .**
> **وكيف تصبح هذه المعرفة عاملاً لزهد الانسان في الدنيا وسبباً لرعاية الحدود الالهية؟.**

قال الامام الصادق (ع):

«العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله، لو سهى قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقاً إليه، والعارف أمين ودائع الله وكنز أسراره ومعدن أنواره ودليل رحمته على خلقه ومطية علومه وميزان فضله وعدله. قد غني عن الخلق والمواد والدنيا ولا مؤنس له سوى الله ولا نطق ولا إشارة له إلا بالله ومع الله ومن الله.. فهو في رياض قدسه متردد ومن لطائف فضله متزود».

إن طرح هذا الموضوع في باب المسائل السلوكية وقضايا تهذيب النفس وإصلاحها قد يثير في الأذهان استغراباً، لأنه يطرح عادة في باب العقائد أو المسائل الحكمية. ولكن إذا تأملت معي قليلاً، عرفت كم نحن محرومون من الاستفادات المعنوية من خزائن الغيب الربوبية، ولعلمت أن معرفة الله تعالى لا غنى عنها في سير الإنسان وسلوكه في صراط العبودية الحقة. ولا يختلط عليك الأمر، فتظن أن هذا العلم مقتصر على جماعة من العلماء الذين لا شغل لهم ولا هم إلا بالبحث والدرس، فإن فيه فوائد عملية لا يستغني عنها السالك في كل مراحل سلوكه، وكلما اشتدت رياضته وعلت مرتبته وقوي في أمر المراقبة ازدادت

حاجته إلى هذا العلم وهذه المعرفة. والنظر إلى الحقيقة الرقيقة:

«من عرف نفسه عرف ربه».

يبين مدى الارتباط ما بين هذه المعرفة وتهذيب النفس. ونذكر هنا جملة من الروايات الشريفة ونستمد من مدد القرآن الذي لا ينفد لبيان دور هذه المعرفة في عالم الجهاد الأكبر، ثم نذكر في خاتمة الدرس شيئاً مما يمكن أن يستفيد منه السالك لأجل تحصيل هذه المعرفة.

اعلم أن معرفة الله تعالى هي غير إثبات وجوده. ومن هنا نشأ الالتباس عند الكثيرين وعميَ عليهم هذا المطلب الشريف، لأن الإثبات فرع الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، التي تستمد من المفاهيم الكلية لبناء مقدماتها والوصول إلى نتائجها. أما قضايا تهذيب النفس وإصلاحها وتحليتها بالفضائل الأخلاقية فهي فرع المسائل القلبية التي تبعد عن تلك المفاهيم الكلية وتنفر منها.

قال الصادق (ع):

«لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله ما مدوا أعينهم إلى ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤونه بأرجلهم ولنعموا بمعرفة الله تعالى وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنات مع أولياء الله، إن معرفة الله أنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة ونور من كل ظلمة وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم».

فانظر إلى هذه المعرفة التي تسطع على قلب الإنسان ووجوده بأنوار السعادات المطلقة وتنتشله من حضيض الجهالات وبؤس التعلقات المادية بثمرة الزهادة والابتعاد عن حب الدنيا والنظر إلى ما في أيدي الأعداء. إن معرفة الله تعالى كما يبين صادق أهل البيت (ع) لها آثار حقيقية تظهر في حياة الإنسان وتوصله إلى لذات جنات النعيم في مقعد قرب مع أولياء الله وتخرجه من غصات وآلام الوحدة والحزن إلى نور التوحيد والشفاء الأبدي. إذن فما كنت تحمله من

تصور عن معرفة الله كان محض الالتباس والاشتباه وقد عددته من قبيل المفاهيم الكلية وظننت أن هذه المعرفة هي كمعرفة عدد الكواكب أو الشمس أو أسماء الشعراء والأدباء في العصر الجاهلي!!

إنّ هذه المعرفة تتكامل بالسير العملي والسعي والمجاهدة النفسية، وكذلك فإن من ثمرة هذه المعرفة إيصال الإنسان إلى سعادة قرب النوافل وشوق اللقاء والزهد في الدنيا الذي هو القدم الأولى في طريق السير والسلوك. وقد جاء في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين (ع):

«رأس الحكمة مخافة الله»

مما يوحي بشكل بيّن أن رأس الحكمة أو العلم الثابت الحقيقي هو أمر عملي عبّر عنه أمير المؤمنين (ع) بالخوف من الله. **وكلما تأمل الإنسان ونظر في التعاليم الإلٰهية والآيات الشريفة استفاد في هذا المطلب الشريف وتقدم في حكمة الجمع بين العلم والعمل في صراط الله المستقيم. وإذا رجعت إلى القرآن الكريم رأيت آياته تنقل إليك بنغمات القدس:**

﴿الله الذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهن
يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير
وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾.

ألا تكفيك هذه اللوائح الإلٰهية في إدراك هذا الأمر العظيم الذي عبّر عنه لسان الغيب وزين العباد في دعائه.

«إلٰهي عرفت أن مرادك مني أن تتعرف إليّ في كل
شيء حتى لا أجهلك في شيء»

فكانت غاية خلق السماوات والأرضين ونزول الملائكة المقرّبين وبعث الرسالات كلها لأجل أن يصل الإنسان الأشرف إلى مرتبة معرفة القدير المطلق والعليم اللامتناهي.

فاعلم ـ هدانا الله وإيّـاك ـ أن السير والسلوك وتهذيب النفس وإصلاحها لا ينفصل بتاتاً عما قـدّمنا، وقد حصل لك بعد التأمل السـابق في أنوار الأحاديث والروايـات مدى هذا الارتباط الـذي يفتخر السالكون في نسبـة أنفسهم إليه كما روي عن أمير المؤمنين ومولى المتّقين وإمام العارفين علي (ع):

«الحكمـة بحـر والعلم نهر، والحكماء في البحـر يغوصون والعلماء حول النهر يطوفون والعارفون في سفن النجاة يسيرون».

فهم إلى شـاطىء الأمـان بسفينة العلم والعمـل وتهذيب النفس والريـاضـة والمراقبـة والالتفات إلى عـالم الغيب وفتح نـوافذ القلب سـائرون قد عبروا أوديـة المصطلحات الجافـة والمفاهيـم الجامدة ولم يقتنعوا بغـذاء العقل فقط وإنما ساروا بالأمرين معاً «رزقنا الله وإياكم».

فإذا علمت ذلك، فتقدم بقدم العبودية معترفـاً بالعجز والمذلة أمام المعبود، واعترف بلسـان الفقر والفـاقـة أنك كنت غافـلاً قـد أسـدلت ستار الجفـاء مع الحبيب ونظـرت في مقصودك إلى غيره، وكـانت رياضتك لأجل سـواه وأعمالك لتحصيل اللـذات المادية أو المعنـويـة التي لا تساوي شيئـاً في جنب الله. ومهما يكن فالاعتراف في هـذه الدار أفضل بكثير من الـوقوف في محضر الصـالحين يوم الحشر الأكبر والإقرار:

«يا حسرتٰى على ما فرطت في جنب الله».

والجملة العظيمة في أدعية المعصومين (ع):

«سبحان من لم يجعل طريقاً إلى معـرفته إلا بالعجز عن معرفته»

تحتوي على مضامين عظيمة وفوائد جليلة يستفيـد منها السالكون ويتزود من مأدبتها العـارفون وهي تشير إلى المطلب الأسمى الـذي قدمنا الحديث حـوله في بيان طريق العبودية للسير نحو المعبود.

وإذا وصل الكلام إلى هنا، فإننا نذكر جملة من الروايات الشريفة التي وردت عن لسان أهل العصمة والطهارة في آثار معرفة الله عز وجل وفضلها:

■ **جاء أعرابي إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله علمني من غرائب العلم فقال (ص): ما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه؟ قال الرجل: ما رأس العلم يا رسول الله؟ قال (ص): معرفة الله حق معرفته.**

■ وقال الرسول الأعظم (ص):

«أفضل الأعمال العلم بالله، إن العلم ينفعك معه قليل العمل وكثيره، وإن الجهل لا ينفعك معه قليل العمل ولا كثيره».

■ وعن الصادق (ع) قال:

«ما أقبح الرجل، يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه ثم لا يعرف الله حق معرفته».

■ وسئل أيضاً: **«ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقال (ع):**

لأنكم تدعون من لا تعرفونه!!».

■ وقد قال خاتم الأنبياء والمرسلين (ص):

«لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال».

■ وعن أمير المؤمنين (ع):

«من سكن قلبه العلم بالله سكنه الغنى عن الخلق».

■ وقال الصادق (ع):

«من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا».

السالك، عندما يذوق من شراب كأس المعرفة شربة، يحصل في قلبه شوق إلى المعرفة الحقيقية. فيتقدم في بساط التوحيد مبتدئاً بتحصيل المقدمات اللازمة من طهارة الوعاء (الذي هو القلب) والإخلاص والتوجه التام. فهذا العالم لا يمكن دخوله ممن تخلق بأخلاق الأبالسة الغدارين أو أراد خداع الناس المساكين.

فأول الطريق بعد تحصيل المقدمات أن تواظب على أمر المراقبة والتعرف على أحوال نفسك وفيما تتقلب فيه، حيث تنتهي هذه المراقبة بالوصول إلى حقيقة الاعتراف بالعجز والمذلة والفقر والفاقة فتظهر حقيقة «سبحان من لم يجعل طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته»، وتلوح لائحة

«من عرف نفسه فقد عرف ربه».

ثم إنّ السالك يحتاج إلى الدرس والتعلم وسماع العلم وخاصة من لسان الغيب الأوحد وخلفائه المعصومين (ع)، الذين هم الأدلّاء على الله كما **قالوا (عليهم السلام)**:

«بنا عرف الله بنا عبد الله».

خلاصة الدرس الرابع عشر:

- الشرط الثاني الذي ينبغي للسالك أن يراعيه في عالم الجهاد الأكبر هو معرفة الله عز وجل.
- إن غاية خلق السموات والأرضين ونزول الملائكة المقربين وبعث الرسالات كلها إنما كان لأجل إيصال الإنسان الأشرف إلى مرتبة معرفة القدير المطلق والعليم اللامتناهي.
- إن السير والسلوك وتهذيب النفس وإصلاحها لا ينفصل بتاتاً عن طلب معرفة الله بل إن هذه المعرفة تتكامل بالسير العملي والسعي والمجاهدة الأنفسية.
- لمعرفة الله آثار حقيقية تظهر في حياة الإنسان منها إيصاله إلى سعادة قرب النوافل وشوق اللقاء والزهد في الدنيا الذي هو القدم الأولى في طريق السير والسلوك، وهي تتكامل معه حتى تخرجه من غصات وآلام الوحدة إلى نور التوحيد والشقاء الأبدي.
- من شروط معرفة الله التي هي عبارة عن تقدّمٍ في بساط التوحيد:

١ ـ تطهير وعاء القلب.

٢ ـ الإخلاص والتوجه التام.

٣ ـ المواظبة على المراقبة.

٤ ـ الدرس والتعلم وسماع العلم من لسان الغيب الأوحد وخلفائه.

٥ ـ الوصول إلى حقيقة الاعتراف بالعجز والمذلة والفقر والفاقة.

أسئلة الدرس الرابع عشر:

١ ـ كيف تلعب المعـارف الربـانية دوراً أساسيّـاً في الجهاد الأكبر؟

٢ ـ كيف تتكامل المعرفـة بالسير العملي والسعي والمجاهدة الأنفسية؟

٣ ـ لماذا يصـل الانسان إلى مقام الخوف من الله مـن خلال معرفته؟

٤ ـ اشرح قوله تعالى : «إنما يخشى الله من عباده العلماء».

٥ ـ لماذا يصبح العارف زاهداً ؟

١٥ معرفة الأمراض

«إذا أراد الله بعبد خيراً لهاه عن محاسنه وذكره بعيوبه وكرهه مجالسة المعرضين عن ذكر الله» .

إن من مهمات عالم الجهاد الأكبر معرفة الأمراض أو تشخيص الداء والذي يعد مقدمة الشرط الرابع الذي هو المجاهدة بقدم الرياضة . فالسالك ما لم يتعرف على مكامن العدو الحقيقي ومظانّ بروز الأمراض القلبية ونفوذ الجنود الإبليسية فلن يتمكن من مجاهدتها والتغلب على آثارها .

قال الباقر (ع) :

«في القلب أذنان أذن ينفث فيها الوسواس الخنّاس وأذن ينفث فيها الملك فيؤيد الله المؤمن بالملك ، وذلك قوله تعالى : فأيدهم بروح منه» .

فجنود إبليس اللعين تدخل في صراع مع الجنود الرحمانية للاستيلاء على عرش الرحمان الذي هو القلب مستخدمة سلاح حب الدنيا والنفس وشباك الشهوات والملذات ، وما دام السالك لم يدخل في مضمار المخلصين فلن يكون في مأمن من الأعداء الحقيقيين كما حكى عن إبليس الرجيم :

«قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين» .

فاعلم أن لكل مـرتبة من مـراتب النفس السبع أمراض يعبّر عنهـا بالـذنوب والكـدورات التي تحصل غـالبـاً من التعلق بشجـرة الطبيعـة وحب النفس والأنانيـة، وما دامت كل مـرتبة من تلك المراتب غير خـاضعة للمـرتبة الأعلى، والمرتبة الأعلى غير خـاضعة للحق جلّ وعلا، فإن صـاحبها ما زال خـارجاً عن نطاق العبودية شاهراً سيف التكبّر والجفاء.

فأمراض **المرتبة الأولى** (البدن) هي الأمراض الجسمانية التي ينبغي الرجوع في علاجهـا إلى طبيب ماهر ودواء نـاجح، وإلاّ فإن المرض يتفاقم حتى يقضي على الجسد في بعض الأحيـان. وتكليف السالك أن يحافظ على جسمـه وصحته لأن الله يريد حيـاته ولولا ذلك لما قدّم رجلاً في هـذا المضمار. فإذا لم يوفق السالك في علاج الأمـراض الجسديـة بعد بذل الـوسع المطلوب فليكل أمـره إلى الله ويتوكل عليه فهو أعلم بما يصلح له.

وأمراض **المرتبة الثـانية** (الخيـال) هي تلك الوسـاوس الشيطـانية والصـور الخيالية الفاسدة التي تنشأ من جرّاء التعلق بعـالم الطبيعة وحب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة. ومن أمـراض الخيال انشغال السالك بغير ذكـر الله أو التفكر المطلوب لصـلاح معاشـه وحالـه. وبالجملـة، فعلى السالك أن يـروّض الخيال حتى يصبح تابعاً للحق لا يلتفت إلى الأمور البـاطلة والصور الفاسدة ولا تعبث بـه وساوس الشيطـان الـرجيم. وقد اعتبر البعض أن تطهير الخيـال مستحيل، ولكن ليس الأمر كـذلك بل هو يحتاج إلى جهـد كبير، حتى أنه اعتُبر من أعظم مطهّرات السر، وطـريقة نفي الخواطـر في هذا المجـال خير علاج، فلتطلب من الكتب المعتبرة.

وأمراض **المرتبة الثالثة (العقل)** تكمن في إشغاله بغير الأمـور الحقانية كجمع الاصطلاحات وتكثير البراهين والأدلّة وحل المعضـلات الرياضيـة لأجل اللذة والتفوق، ورسم الخطط المكرية لأجل الإيقاع بالأبرياء وتحصيل الأمور الفاسدة. وبـالجملـة فإن إعمال العقل بغير مـا ينبغي لـه من الأمـور الشريفـة والفـرائض

الشرعية من المعارف الربانية والذود عن عقائد المسلمين يعد ذنباً ومعصية في هذه المرتبة. ومن خلال هذا البيان يعلم ما فيه صلاح العقل وتهذيبه.

وأمراض المرتبة الرابعة (القلب) كثيرة لا يسع هذا المقام لذكرها ولكننا نذكر منها: النفاق الذي وصفه القرآن الكريم بأنه مرض قلبي.

﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم...﴾

وكذلك الرياء والعجب. ولعل أغلب الأمراض الأخلاقية ناشئة من مرض القلب الذي يحتاج إلى طبيب حاذق ومراقبة دقيقة.

وأما أمراض **المراتب الأخرى** فتنضوي تحت عنوان الخروج عن سلطان الحق. وتكون في الغالب ناشئة من الوقوع في الحجب النورانية من حب النفس وكمالاتها والاستغراق في المشاهدات الشريفة والمنازل المعنوية.

وطريق السير بعد معرفة الأمراض هو النظر في حقيقتها وآثارها. وليعلم أن لكل ذنب أو معصية تبعات حقيقية لا تشاهدها أعيننا الطبيعية التي حجبناها بحجاب حب الدنيا والركون إلى المحسوسات. ويروى عن بعض العارفين وأهل الله أنهم كانوا يشاهدون حقيقة بعض الذنوب، كما حصل لأحدهم عندما سمع شخصاً يستغيب مؤمناً أمامه، فقال له:

ويحك لقد أتعبتني عشرة أيام.

أو كما حصل للإمام الخميني (قده) عندما علم أن أحد تلامذته استغاب عالماً معروفاً، فعاودته الحمّى المالطية وأقعدته عدة أيام طريح الفراش.

المشكلة تكمن في أن هذا النوع من الأمراض (النفسية الباطنية) لا يمكن التعرف عليها ـ إلاّ من رحم الله ـ وغالباً ما يفقد الإنسان المؤشر الواقعي الذي يرصد مثل هذا الخلل. فنحن نرى أن وجود مؤشر الوقود في السيارة ضروري لأنه ينبه السائق إلى انتهاء الوقود فيتجنب السفر مسافات طويلة أو بعيدة عن

محطات الوقود، لكي لا يقع في الحرج الشديد أو الهلاك أحياناً. وشعور الإنسان بـالألم ينبهه إلى وجـود المرض فيسرع إلى معالجتـه. ولعل تسمية بعض الأمـراض بالخبيثـة هو من جهـة أن الإنسان لا يشعـر بها إلا بعد فـوات الأوان، وبعد أن يكون المرض قد استشرى في كامل الجسد وقضى على أي أمل في شفائه.

والأمر الآخر هو أن للذنب الواحد مراتب عديدة، فلا تظن أنك إذا قضيت على مرتبة منها تكـون قد اقتلعت كامل المرض. كالرياء الـذي ورد فيه في الروايات: أنه

«أخفى من دبيب النملـة السـوداء على الصخـرة الصماء في الليلة الظلماء».

وقد يتصور السالك أحياناً، أنه قـد شفي من حب الدنيا والتعلق بمظاهرها بمجرد أنه لا يرى في تلك المظاهر أيـة بهجة تجذبه أو رونق يأخذه. ولكن عندما تقبل عليه بزبارجها وزخارفها، يجد تعلقاً عجيبـاً وانجذاباً مفرطاً نحوها بحيث يستولي ذلك على كل تفكر أو تذكر.

خلاصة الدرس الخامس عشر:

- الشرط الثالث الذي ينبغي للسالك أن يراعيه في عالم الجهاد الأكبر معرفة الأمراض النفسية لكل من مراتب النفس السبعة لأن ذلك يعد شرطاً أساسياً لاقتلاعها.
- أمراض المرتبة الأولى (البدن): هي الأمراض الجسمانية التي ينبغي الرجوع في علاجها إلى الطبيب الماهر.
- أمراض المرتبة الثانية (الخيال): وهي تلك الوساوس الشيطانية والصور الخيالية الفاسدة التي تنشأ من جراء التعلق بعالم الطبيعة وحب الدنيا.
- أمراض المرتبة الثالثة (العقل): هي إعمال العقل بغير ما ينبغي له من الأمور الشريفة والفرائض الشرعية من المعارف الربانية.
- أمراض المرتبة الرابعة (القلب): وهي كثيرة منها النفاق والرياء والعجب....
- أمراض المراتب الأخرى: تنضوي تحت عنوان الخروج عن سلطان الحق وتكون في الغالب ناشئة من الوقوع في الحجب النورية.
- ينبغي النظر في حقيقة الأمراض وآثارها التي لا تزول مع مرور الزمن وذلك بسبب: ـ فقدان المؤشر الظاهري الذي يدل عليها.

ـ وجود مراتب عديدة ودرجات خفية لكل مرض منها.

أسئلة الدرس الخامس عشر:

١ ــ هل تظن أن لكل مــن أمــراض مــراتب النفس السبعــة عــلاجات خــاصة تبرىء الســالك من الــوقوع فيهــا؟ أوضــح ذلك.

٢ ـ عدم اقتــلاع أحد أمراض المراتب السبع للنفس هل يقف حجر عثرة أمام سير وسلــوك الإنسان؟ (حدد أمراض كل مرتبة على حدة).

٣ ــ كيف يمكن التأكد من زوال أحــد أمراض النفس وهــو مرض خفي لا مؤشر يدل عليه؟

٤ ـ ما هي الآثار الواقعية لارتكاب الذنوب؟



على المجـاهد في ميـدان الجهاد الأكبر أن ينهض لمواجهـة الأعداء البـاطنيين والتغلب على الجنود الإبليسيين بالرجوع إلى كـافة الطرق الشرعية والاستمدادات الرحمانيـة . وليعلم أن البرنامج السلـوكي لتصفية البـاطن وتطهير السر ينبع من الشريعة الغرّاء بـالدرجة الأولى ، وأن أعمدته الحقيقيـة هي الفرائض الإلٰهية التي هي طريق الوصول إلى مشاهدة الحقيقة الكبرى . وما ابتدعه البعض من الأعمال والعبادات بحجـة نقصان الشريعة من البرامـج السلوكية ، يـرجع في الحقيقة إلى قصور النظـر وقلة التدبـر في الآثار العظيمة للفـرائض والصور المعنويـة المجردة للتكاليف الشرعية .

كما يتصـور أحدهم أن الجهـاد هو عمل سيـاسي أو عسكري بحت يـدخل ضمن دائرة الحكومة أو إجـراء العدالة ، غافـلاً عن أن هذا العمل الشريـف إنما أعد للأولياء المقرّبين كما قال سيدهم (ع) :

«إن الجهاد بـاب من أبواب الجنة فتحـه الله لخاصة أوليائه . . »

والسالك المقصر الذي لا يرى في نفسه أداء حق العمل يصر على العبودية لله من خلال المستحبّـات الشرعية والمواظبة على تـرك المكروهات التي هي قـربات الاعتراف بالعجز و إعلان الحب للمحبوب الأول .

ويبقى أن ينظم السالك طريق السير في الأعمال والأوامر الإلٰهية بمراعاة شروط

البرنامج الشامل مع الأخذ بعين الاعتبار الحال والمقام والإدبار.

ونحن نذكر هنا جملة من الشروط والمهمات على نحو الإجمال ويمكن طلبها والرجوع إلى تفاصيلها في مكان آخر كالرسالة الشريفة الموسومة «بلب اللباب في سير وسلوك أولي الألباب».

من هذه الشروط :

■ **الأستاذ والمربي:** كما جاء «هلك من ليس له حكيم يرشده».

■ **الرفق والمداراة:** بلحاظ حالات النفس عند البدء بالبرنامج السلوكي أو أثناء القيام بجملة العبادات والأعمال الشريفة.

■ **الثبات والمداومة:** كما ورد في الأحاديث أن :

«أفضل الأعمال ما داوم عليه العبد وإن قل».

■ **المراقبة والمحاسبة:**

« ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم مرة».

■ **الذكر والفكر:** والبدء أولاً بالأذكار المشهورة والمستحبة وأعظمها القرآن. والتفكر في التوحيد وأحوال النفس ولطائف الصنع.

خلاصة الدرس السادس عشر:

- الشرط الـرابع الـذي ينبغي للسـالك أن يرعـاه في عـالم الجهاد الأكبر هـو معرفة البرنـامج السلوكي أو الأعمال والريـاضات التـي يجب عليه اتبـاعها لمواجهـة الأعداء الباطنيين والتغلب على الجنود الإبليسيين.
- إن البرنامج السلوكي لتصفية الباطن وتطهير السر ينبع من الشريعة الغرّاء بالدرجة الأولى وأعمدته الحقيقية هي الفرائض الإلهية.
- لتنظيم طريق السير في الأعمال والأوامـر الإلهية شروط، منها:

  - متابعة الأستاذ والمربي.
  - الرفق والمداراة بالنفس وملاحظة حالاتها.
  - الثبات والمداومة على العمل.
  - المراقبة والمحاسبة.
  - الذكر والفكر.

أسئلة الدرس السادس عشر:

١ ــ عدّد شروط عـالم الجهاد الأكبر وتحدث عن البرنـامج السلوكي كقواعد كلية.

٢ ــ إذا كنت تحب أن ترسم بـرنـامجاً أخلاقيـاً وسلوكيًّـاً لنفسك، فكيف تحب أن ترسمه؟

٣ ـ بـرأيك من يقدّم أفضل البرامج السلـوكية: العـرفاء أم الحكماء أم (من)؟

٤ ــ لإنجـاح بـرنـامجك السلـوكي هل تعينك العـزلـة أم الاختلاط؟

الفهرس

مقدمة الطبعة الثانية 5

الاسلوب الاول 5

الاسلوب الثاني ٩

١ـ الأخلاق في الحياة ١١

١:١ علم الأخلاق ١٢

٢ـ معرفة الهدف ١٧

١:٢ أول السير التفكر ١٧

٢:٢ وفي انفسكم افلا تبصرون ٢٠

٣ـ إزالة الحجب والموانع ٣٠

١:٣ مثال المرآة ٣٠

٢:٣ الحجاب الأول ٣١

٣:٣ الحجاب الثاني ٣٤

٤:٣ الحجاب الثالث ٣٥

٥:٣ الحجاب الرابع ٣٥

٤ـ العبودية سبيل الوصول الوحيد ٤١

١:٤ حقيقة العبودية ٤٥

٢:٤ طريق الوصول إلى العبودية ٤٦

٣:٤ التكليف عام وخاص ٤٧

٥, ٦ـ القرآن الكريم مربي أولياء الله ٥٢

١:٥ التعظيم ٥٥

٢:٥ فهم مقاصد القرآن ٥٦

ـ معرفة الله تعالى ٥٧

ـ تهذيب النفوس ٥٨

ـ قصص الأنبياء ٥٨

ـ أحوال الكفار والجاحدين ٦٠

ـ بيان ظاهر الشريعة ٦٢

ـ أحوال المعاد ٦٢

١:٦ كيفية الاستفادة ٦٢

٢:٦ رفع الحجب بين المستفيد والقرآن ٦٣
٣:٦ حضور القلب ٦٩
٤:٦ التفكر ٦٩
٥:٦ التطبيق ٧٠
٦:٦ الإخلاص ٧١
٧:٦ التمسك بالثقل الثاني ٧٢
٧ ,٨ ـ محبة أهل البيت (ع) أفضل وسيلة لتهذيب النفس ٧٧
١:٧ الحب وأثره في السير والسلوك إلى الله ٧٨
٢:٧ محبة أهل البيت هي عنوان التمسك ٧٩
١:٨ من نحب؟ ٨٣
٢:٨ تحصيل المحبة ٨٥
٩ ,١٠ـ الإخلاص ٩٠
١:٩ أقسام الإخلاص ٩٠
٢:٩ آثار الإخلاص ٩١
٣:٩ درجات الإخلاص، مراتبه ٩٣
١:١٠ في ذكر بعض درجات الإخلاص ٩٤
٢:١٠ أحاديث في الإخلاص ٩٩
١١ ,١٢ـ العوالم المتقدمة على عالم الخلوص ١٠٣
شرح العوالم ١٠٣
١:١١ الإسلام الأصغر ١٠٣
٢:١١ الإيمان الأصغر ١٠٤
٣:١١ الهجرة الصغرى ١٠٥
٤:١١ الجهاد الأصغر ١٠٦
٥:١١ الإسلام الأكبر ١٠٦
٦:١١ الإيمان الأكبر ١٠٨
١:١٢ الهجرة الكبرى ١٠٩
٢:١٢ الجهاد الأكبر ١١٠
٣:١٢ الإسلام الأعظم ١١٠
٤:١٢ الإيمان الأعظم ١١٢
٥:١٢ الهجرة العظمى ١١٢
٦:١٢ الجهاد الأعظم ١١٢
١٣ـ شروط ومهمات عالم الجهاد الأكبر ١١٦
١:١٣ معرفة النفس ١١٨

١٤ـ معرفة الله ١٢٤
١٥ ـ معرفة الأمراض ١٣٢
١٦ـ البرنامج السلوكي ١٣٨
الفهرس ١٤٢

ويجب على الإنسان الإلتفات كثيراً إلى نفسه في هذا الجهاد فمن الممكن - لا سمح الله - أن تسفر هزيمة الجنود الرحمانية في تلك المملكة وتركها خالية للغاصبين والمحتلين من جنود الشيطان عن الهلاك الدائم للإنسان بالصورة التي يستحيل معها تلافي الخسارة ولا تشمله شفاعة الشافعين وينظر إليه أرحم الراحمين أيضاً بعين الغضب والسخط - نعوذ بالله من ذلك - بل ويصبح شفعاؤه خصماءه وويل لمن كان شفيعه خصمه.

الإمام الخميني (قده)



مدرسة الامام المهدي (عج)

